عزيز نسين

في إحدى الدول



١٩٩٠

توزيع مكتبة دار الرازي
حلب ــ ص . ب ٧٤٨٤
هاتف ٢٢٧٨٩٩

H.B
14/06/09

عزيز نيسين

في إحدى الدول

قصص

ترجمة: عبد القادر عبد اللي

صياغة: خطيب بدلة

مقدمة

أعزائي القراء العرب .

منذ أربعة وأربعين عاماً ، أثناء الحرب العالمية الثانية ، كنت ضابطاً في الجيش . كنا نجري مناورات ، وكنا في الساحة ، وعند عودتنا إلى الخيام ، بعد مسيرة ليلية ، سألنا الجنرال : ترى لماذا نخاف من الليل ؟

أذكر أن أجوبتنا لم ترض الجنرال ، وهكذا أدلى بجوابه الخاص : «نحن نخاف الليل ، لأننا لانرى ولا نعرف ما حولنا في العتمة . العتمة هي الجهل ولذلك نخاف منها » .

منذ أربعة وأربعين عاماً ، لم يحصل أني نسيت ابداً تلك الكلمات ، وسأتذكرها إلى الأبد .

العتمة هي الجهل

والآن اتساءل ما هو العامل الذي يضمن المعرفة الجيدة ، بين اناس من مجتمعات مختلفة : واعطي الجواب : الأدب هو النور الذي ينير ظلمات البشرية . ان خدع الامبريالية وأطماعها قد نجحت وللأسف في ابعاد الشعبين العربي والتركي ، أحدهما عن الآخر ، هذين الشعبين اللذين كانا متعارفين جيداً في الماضي ، كان مطلوباً أن يعادا إلى الظلمات ..

من غير الممكن ان يتعرف الشعبان التركي والعربي ، آحدهما على الآخر ، من خلال العلاقات بين الحكومات والتجارة فقط . لايمكن أن يتحابا دون أن يتعارفا عن كثب . وهناك ما يمكن أن يؤدي إلى المعرفة المتبادلة بيننا بالتأكيد ، انه شعرنا ورواياتنا ، وقصصنا وحكاياتنا ، أو بكلمة واحدة :ادبنا .

سأسعد كثيراً اذا ساهمت ترجمة كتابي إلى العربية في تقاربنا ، وفي التوصل إلى معرفة أفضل بين الشعبين التركي والعربي .. واذا شكّلت شرارة نور ليضيء العلاقات بين شعبينا .

عزيز نسين

٦ آب /١٩٨٨

ثمة صدفة في الخزينة

..يا ما كان .. ما كان ، ما كان .. في قديم الزمان ، مكان ما من العالم ، مكان ، ما كان فيه شيء . في هذا المكان الذي ما كان فيه شيء ، كان ثمة سلطان ، السلطان عنده خزينة ، في الخزينة أمانة الشعب الغالية . الشعب يفخر بهذه الأمانة الآيلة إليه من أجداده .. يتناسى فقره وبؤسه ويتباهى بها قائلاً :

« .. وحتى لو لم يكن عندنا شيء ، يكفينا أن تكون عندنا هكذا أمانة من الأجداد » لايفعل ذلك شخص ، شخصان .. وإنما كل فرد من أفراد الشعب يستأثر بحصة من المباهاة بهذه الأمانة القيمة الباقية له من أجداده .. يحميها بروحه وجسده .

وطالما أن أحسن مكان لحفظ الأمانة التي هي مال الشعب ، هو خزينة السلطان ، فقد خُبئت فيها ، يحرسها رجال مدججون ، لا يغمض لهم جفن ولا يدعون الطير تطير فوقها .

السلطان والصدر الأعظم وذوو المراتب في القصر يقسمون بشرفهم مرة كل عام على حمايتها .

ودارت الأيام ، ومرت الأيام .. حتى جاء يوم فكر فيه السلطان بمعرفة ما هي هذه الأمانة التي يستفديها الناس بأرواحهم ودمائهم ، فصار يتحرق شوقاً إلى معرفة مابداخل خزينة الأمانة تلك . ولم يعد يطيق صبراً فدخل جناح الخزينة .

لايستطيع الحراس القول للسلطان « ممنوع » .. فالسلطان والصدر الأعظم

والوزراء يدخلون متى ما شاؤوا ليروا ما إذا كانت الخزينة لاتزال في مكانها .

السلطان فعل هكذا : الأمانة موجودة في غرف متداخلة ، كل غرفة تؤدي إلى أخرى .. حتى الحادية والأربعين ، حيث الخزينة . الخزينة في خزائن متداخلة ، كل خزينة تفتح عن خزينة .. حتى الحادية والأربعين . فتح الأربعين غرفة وخش الحادية والأربعين . فتح أربعين خزينة .. وبينما كان يفتح الحادية والأربعين ، أخذ قلبه يضرب .. ذلك أنه كان يمتلك الكثير من الفضول لمعرفة الشيء الذي يحمونه طيلة هذه السنين . فماذا رأى ؟

كانت جوهرة لم تقع عين بشر على مثيلها حتى ذلك الزمان .

جوهرة تتلألأ وتضطرم كألسنة النار . لو قلت من ذهب ما حزرت ، أو قلت بلاتيناً لأخطأت ، أو قلت من فضة ما أصبت .

لم يتمالك نفسه ، قال :« آخذ أمانة الأجداد هذه لي ، تصبح ملكي .. ومَن الذي سيعرف ، وكيف ؟ » .

أخذ الأمانة المقدسة التي كانت تتلألأ كقطعة من الشمس ودسها في جيبه . لكنه بدأ يتخوف « ماذا لو اكتشفوا أنني سرقتها ؟..لأضع مكانها قطعة من الذهب مزينة بالماس واللؤلؤ والزمرد والصدف والياقوت . وطالما أنه لم يسبق لأحد أن رآها فلن يُفهم أنها مسروقة ، فيما لو فتحت الخزنة ذات يوم.. » .

ومثلما قال فعل . أقفل إحدى وأربعين خزينة متداخلة ، وفوقها واحداً وأربعين باباً ، وهو يرتعش من خشية أن يشك أحد أنه سرق الأمانة .

حتى ذلك الزمان كان يُقسم يمين واحد في السنة على حماية الأمانة ، فضاعفها إلى مرتين : يجتمع أبناء الشعب والمديرون والسلطان ويقسمون على أنهم سيحمون الأمانة المقدسة الباقية من الأجداد ، بأرواحهم ودمائهم .

الصدر الأعظم رجل داهية . داخله الشكل فقال لنفسه : « كنا نقسم مرة في السنة ، فلماذا رفعها السلطان إلى اثنتين ؟» .. وفي يوم من الأيام دخل جناح الخزينة موسوساً : « ما هي هذه الأمانة التي نحميها طيلة هذه السنين؟ » . مر من إحدى وأربعين غرفة ، فتح إحدى وأربعين خزينة ، رأى الأمانة . وقف مشدوهاً أمام قطعة الذهب التي وضعها السلطان لئلا يتنبه لفعلته أحد : « آخذُ هذه الأمانة مكانها قطعة ذهب مزينة بحجارة لماعة . وكيفما كانت ، وطالما أن الأمانة لايعرفها أحد ، فإن من يفتح الصندوق يوماً سيعتقد أن هذه هي الأمانة المقدسة .. » .

ومثلما قال فعل . وخوفاً من أن تُكشف عملته أزمع أن يرفع عدد المرات التي يقسم

فيها اليمين إلى أربع : في الصيف والشتاء والربيع والخريف ، مثلما سبق للسلطان أن رفعها إلى اثنتين .

أحد الوزراء رجل داهية . دخل الشكل نفسه :« كنا ، حتى الآن نقسم مرتين ، فلماذا زادوها إلى أربع ؟ » .

هو الآخر ، وطالما أنه يستطيع الدخول دون اعتراض من أحد ، فقد دخل يوماً عبر الإحدى وأربعين غلافة ، فتح الإحدى وأربعين خزينة ، فلمعت عيناه بالفرح إذ رأى قطعة الذهب المزينة بالحجارة اللماعة : « لو آخذها وأضع مكانها قطعة فضة ، فمن سيعرف ؟.. » .

ومثلما قال فعل . ورفع ــ مدفوعاً بخوفه من أن يكتشف أمره ــ عدد مرات الحلفان إلى مرة كل شهر .. صار الشعب يجتمع في الساحات العامة مرة كل شهر ، ويقسم على أنه سيحمي الأمانة المقدسة حتى آخر رجل وآخر قطرة دم .

مشرف القصر واحد داهية ، توسوس من رفع معدلات الإقسام إلى مرة في الشهر . قال : « ثمة ما يريب ، لأذهب وأرَ » . مر من الإحدى وأربعين غرفة ، فتح الإحدى وأربعين خزينة .. رأى أمانة الأجداد المقدسة فأعجب بها : « لو آخذها وأضع مكانها قطعة نحاس فمن الذي سيدري؟ » .

ومثلما قال فعل . فعلها ، وخوفاً من افتضاح أمره ، ولكي يعتقد الناس أنه حريص عليها ، فقد جعل اليمين يقسم مرة في الأسبوع .

الضابط الذي يحمي الخزينة ــ هو الآخر ــ داهية : «ما الذي يجري ؟ كل اسبوع نقسم . لأذهب وأر هذه الأمانة المقدسة ..» . وكما فعل الآخرون ، مر من احدى وأربعين غرفة ، فتح احدى وأربعين خزينة . رأى قطعة النحاس اللامعة ففرح بها : «إذا أخذتها ووضعت مكانها قطعة حديد ، فمن سيعرف ؟..» .

ومثلما قال فعل . ولكي يتملص من عملته ، وليعتقد الناس أنه غيور على الأمانة يفتديها بروحه وجسده ، فقد رفع معدلات الحلفان الى مرة في اليوم .

.. ودارت الأيام ، ومرت الأيام .. ظهر من بين الناس رجل ، قال :

ــ كل يوم ونحن نقسم على أننا سنحمي الأمانة الباقية من الأجداد بدمائنا وأرواحنا .. ونحن في واقع الحال نخبئها في الخزينة ونحميها على نحو جيد .. لكن ماهذه الأمانة ؟ ألسنا نحن

المؤتمنين عليها ؟ تعالوا إذن نفتح الغرف والخزائن لنر مانحمي .

أحدثت كلمات الرجل تأثيراً كتأثير القنبلة . الذين خانوا الأمانة ، وعلى رأسهم السلطان ، تقدموا نحوه وطوقوه ، الذين أخذوا الأمانة ، على التوالي ، واستبدلوها بأشياء مزورة ، وكل واحد منهم يعتقد أنه فعلها دون علم الآخرين ، ارتعشوا خوفاً من اكتشاف السرقة ، فقالوا للرجل الذي قال لنر الأمانة التي نحميها :

ـــ آخ ياخاين .. وأنت من أنت حتى ترى الأمانة المقدسة التي انتقلت الينا من الأجداد ؟؟

ألبسوه تهمة الاقلال من هيبة الأمانة .. ومابقي إلا شيء قليل حتى يتحول الرجل الى (ممسحة) .

قال السلطان :

ـــ إذا كنا سنقتل هذا الرجل فلنقتله وفق القانون ....

ولكي يعدموا الرجل سنوا قانوناً خاصاً ، وقتل الرجل بقرار من محكمة خاصة .

بيد أن المسألة لم تنته باعدام الرجل . كلماته انتقلت من فم الى فم .. والفكرة أخذت ،كبر كجرف ثلجي .

في يوم من الأيام فكر رجل من الناس : «لنذهب ونر هذه الأمانة طالما أننا سنموت في سبيلها» . لكنه ـــ ولأنه يعرف ماجرى للذي قبله ـــ لم يتفوه بكلمة أمام بشر ، وضع في رأسه أنه سيتسلل الى الخزينة ويرى مابداخلها سراً .

السلطان والصدر الأعظم والوزراء ، وكافة حرامية الأمانة ، بمن فيهم الضابط الذي استبدل قطعة الحديد بتنكة صدئة ، ولكيلا تظهر سرقتهم ، أو بالأحرى لئلا يكتشف أنهم استبدلوها صاروا يحرسونها على نحو أشد .

وبينما كان الرجل الذي نجح في الدخول سراً إلى الخزينة ، بينما كان خارجاً بالأمانة المقدسة ليريها للناس ، رأى الضابط التنكة في يده ، فصرخ :

ـــ هذه ليست هي !

الوزير قال أيضاً : هذه ليست هي !

الذين في القصر ، بمن فيهم السلطان ، قالوا :

ـــ هذه ليست هي !.. هذه ليست هي !..

فسألهم الرجل الممسك بالتنكة الصدئة :

ـــ .. وكيف عرفتم أن هذه ليست الأمانة المقدسة ؟ وإذا لم تكن هي ، فما هي ..؟

لم يتمكن أحد من الحاضرين من الاجابة على سؤاله ، ذلك أن كل واحد منهم قد فهم أن الشيء الذي وضعه بدل الأمانة قد سُرق فيما بعد .

خنقوا الرجل الممسوك وأعادوا التنكة الصدئة الى مكانها ضمن احدى وأربعين خزينة واحدى وأربعين غرفة . ولحماية الأمانة المقدسة سنوا قانوناً يتوجب على كل فرد من الشعب بموجبه أن يحلف صباحاً وظهراً ومساءً على حماية الأمانة المقدسة .

ولم يستطع أحد من الذين يقسمون الأيمان أن يعرف أن الأمانة قد تحولت ـــ من سرقة الى سرقة ـــ إلى تنكة صدئة .

رجل يعيش في روما القديمة

وقعت لي الحادثة التي سأرويها لكم عام ١٢٨ قبل الميلاد . تفضلوا بالانتباه ، أقول (وقعت لي) ، ولاأقول (وقعت) وحسب . لم آخذها من كتب التاريخ ، لكنها مرت على رأسي .

(التناسخ) كلمة تطلق على عملية انتقال الروح . بمعنى أن الناس المعاصرين ، يمكن أن يكونوا قد عاشوا في أجساد أناس آخرين ، أو ربما في أجساد حيوانات ، أتصدقون ذلك ؟ صدقتم أو لم تصدقوا ، هذا لايهمني .

أنا الليلة الفائتة ، كنت أعيش في زمن يقع قبل ألفين وأربع وثمانين سنة ، أي أن روح القدس لم تكن قد خشت رحم مريم العذراء بعد .. ولم يكن لحضرة عيسى اسم أو ذكر .

العام ١٢٨ ق.م ، وأنا مواطن رومي ، عندي فيلا كبيرة وسط حديقة وسيعة على سفح جبل (بلافيوم) . قبل ثلاث ليال أمت فيلتي مجموعة من الضيوف : فلاستوس ، يوليوس بيروس ، تيسارون .. وآخرون من الأحبة . أنتم لاتعرفون أحداً منهم ،لذلك سأوضح لكم ، على نحو موجز ، شيئاً عنهم :

● صديقي فلاستوس : مصارع مشهور . قبل مدة نازل مصارعاً معروفاً في الكوليزيوم[1] . كم أتمنى لو كنتم شاهدتم ذلك النزال العنيف . عندما نزل المصارعان الى الساحة ارتفع صراخ

---

(١) طراز من الصالات المعروفة في روما القديمة .

الستين ألف متفرج حتى كاد أن يصم الآذان ؛ ذلك النوع من الصراخ الذي لانسمع مثيله اليوم إلا في اجتماعات الأحزاب ، وفي مباريات الفرق الوطنية لكرة القدم . التفت فلاستوس صوب شرفة الكونسول[٢] ، حياه باحترام ، صرخ :

ــ (وداعاً ياكونسولنا المحترم ، إن الذين سيموتون الآن يحيونك)[٣] .

فصفق الجمهور على نحو يمكن أن تكونوا قد شهدتم مثيله في نمرة لاحدى عارضات الستربتيز . تنازل المصارعان لثلاث ساعات ونصف الساعة ، وفي النهاية طرح فلاستوس خصمه أرضاً ، دون شفقة . لقد كان منظر ارتفاع وهبوط صدر المصارع المطروح أرضاً تحت الدرع البرونزي المتلامع تحت أشعة الشمس ؛ كالمنفاخ ، منظراً يستحق المشاهدة . مد المصارع المغلوب إصبعيه باتجاه المونسول راجياً اعفاءه من الموت ، فصاح المتفرجون الهائجون :

ــ الموت .. المْو .. وُ .. تْ !

على نحو شبيه بصراخ متفرجي كرة القدم :

ــ جُ .. وّ .. وُ ..وُ .. لْ !

مد الكونسول يده التي تشبه المخلب فوق الغطاء المخملي المطرز بالذهب المغطي الشرفة . أحنى رأسه قليلاً (وهذه إشارة الى فلاستوس أن أنِهِ خصمك !) رفع فلاستوس حربته وأغمدها في قلب خصمه المطروح على الأرض . هذا هو صديقي فلاستوس .

● صديقي يوليوس بيروس : زميل حرب ، جنرال مشهور كان على رأس الجيش الذي قوض المملكة الهلينية .

● وأما العزيز سومبيوس فقد كان في السابق عبداً ، وكان طبيباً وفيلسوفاً ذائع الصيت ، أعتقه سيده بعدما أبراه من مرض ألمَّ به . هذا العبد المتنقل بعقله ومعرفته من العبودية الى مصاف البطاركة ، أصبح ، فيما بعد ، تريبوناً[٤] في المجلس .

● وكان صديقي تيسارون في شبابه من أفضل متسابقي العربات في روما ، وهو الآن من كتاب الشعر والمسرح .

سارت الوليمة التي اقيمت في بيتي على نحو رائع . العازفون عزفوا على الهارب والليرِ والقيثارة .. الراقصات قدمن أجمل ما عندهن .. المشروبات جرت كالسيول . وكان فلاستوس

---

(٢) أحد الحاكمين الرئيسيين في روما القديمة .

(٣) العبارة التقليدية التي يقولها المصارعون قبل النزال .

(٤) عضو في مجلس المدافعين عن حقوق الشعب الرومي ..

بطل الوليمة . عشرون صينية مملوءة بالمآكل والمشروبات والموالح جيء بها إلى أمام الأريكة التي تمدد عليها طيلة ثلاثة أيام . تقيأ أربع مرات ، وكان يعود بعد كل مرة الى متابعة الأكل والشرب . يمكنكم أن تشاهدوا مثله اليوم في الولائم التي تقام للصحافيين .

لكم كانت وليمة رائعة تلك التي استمرت ثلاثة أيام على أكل وشرب ، حتى سقطنا جميعاً في حالة اغماء . كما هو الحال في ولائم الافتتاح اليوم .

وصحونا ..

بعد الحمام ادّهنت بالعطر ، رميت عباءتي على كتفي ، وخرجت لاألوي على شيء .. حتى وجدتني أدخل فيلاجاري بلابيوس فابتدرني قائلاً :

ــ غداً سنذهب للصيد . جهز نفسك والرجال .

ــ عمل الغد سهل ، لكن اليوم ، ماذا تفعل ؟

(بلابيوس واحد من حزبنا ، له خدمات كثيرة للحزب) قال :

ــ نذهب الى السباق ، إذا كنت ترغب ، فاليوم ثمة متسابقون أشداء .

ــ تعبان يا بلابيوس .

ــ نذهب إذن الى المسرح الكبير ، ثمة عمل جيد .

وذهبنا ، بلابيوس وأنا ، إلى المسرح الكبير ، حيث كانت تُمثل كوميديا لحسابيانوس . أنا لاأحب حسابيونس ذلك الواطي الذي يجب أن يقتلع لسانه ، لأنه كالسم . في كل مسرحية له يجرّح الكونسول أو مجلس الأشراف أو مجلس الشيوخ أو الحاكم الشرعي . كم مرة قلت (لننّه هذا الرجل ، لنعطه نبيذاً مسموماً في وليمة ما !) ، فكان فيلسوفنا سومبيوس يقول :

ــ روما جمهورية ، وفي الحكم الجمهوري ، هذا لايجوز . للكل الحق في أن يكتب أن يقول مايشاء .

استاء كثيراً من هذا الحسابيانوس . لو كنت الكونسول لرميته الى كلاب كلبانة لتقطعه على ملأ من الناس . لو أن الحمور أكلت جثته لتسممت .. واحد وسخ .. استاء كذلك من الناس الذين يملؤون الصالة الكبيرة عندما يقوم لهذا المهلهل بتقديم احدى مسرحياته . لكنهم ، معظمهم ، من الغوغاء .. القلة القليلة من المواطنين الأصليين ، من الشيوخ والشرفاء ، هي التي كانت تحضر .

كانت حسابيانوس يجرح حزبنا : قال جماعتنا قد زورت الانتخابات . قالها بوضوح تام .. وحتى لو كانت ملفلفة ، لكنها مفهومة .عندما انتهى أو شكت الصالة الكبيرة على

السقوط من فرط التصفيق . تضايقت . أخذت طريقي الى فيلتي وأنا أسب وألعن . لكن ماهذا ؟ ما الذي يحدث ؟ كان ثمة جمهرة من الناس أمام الفيلا . اندفع عبيدي الى الخارج . سألتهم :

ــ ما الذي يحصل ؟

ــ سيدنا ، لقد حضر الجنود ليعتقلوا ولدكم قرعيوس . كان على رأس الجنود الذين قدموا لاعتقال ولدي ، صديقي العزيز يوليوس بيروس . قلت له :

ــ ما هذا العمل يابيروس ؟

ــ لأأدري ، لكن الاشاعات تقول إن ولدك قرعيوس قد كتب شعراً يقول في أحد أبياته : (إن الطريق المؤدية الى روما .. مغلقة) .

ــ إي ؟ وأي شيء في هذا ؟ أليست روما مغلقة بسبب حفر الكهريز ؟ هل كذب ؟

ــ لأأعرف .. قد يكون في هذا ذنب ، وقد لايكون . عندما يقول المرء الحقائق التي يعرفها فانه قد يقترف بذلك ذنباً . أنت تذكر السبب الذي قتل من أجله عدسيوس . الكل يعرف أن روما تدار بحكم جمهوري ، ومع ذلك قتل لأنه صاح (روما جمهورية !) . أنا لاأعرف شيئاً عن سبب الاعتقال ، ولكن معي قراراً بذلك .

ــ ومن الذي أصدر هذا القرار بايوليوس بيروس ؟ قل لي بسرعة .. سأحضر أجله وحق جوبتر .

واستللت خنجري من غمده ، فمد يوليوس بيروس الورقة قائلاً :

ــ عدوك هذه الورقة . الأمر هنا . أقسم لك بمارس على أنني لا أعتقل ولدك من تلقاء نفسي . أنت تعرف أنني لاأفعل شيئاً سوى واجب الوظيفة .

ــ نعم ، الوظيفة وظيفة . لكن ، من هو معطي القرار ؟

ــ إنه مدير الناحية بلاكيوس .

في طريقي الى مدير الناحية ، وعباءتي تهفهف في كل الاتجاهات ، التقيت صديقي الفيلسوف سومبيوس . قال لي :

ــ ماهذا الاضطراب يافلفليوس ؟ أيطاردك إله الجحيم ؟

لقد أمر باعتقال ابني قرعيوس .

ــ بلاكيوس لايستطيع الاتيان بشيء من عنده ، لابد أنه قد أخذ أمر الاعتقال من

جهة أخرى .

سألت سومبيوس :

ــ ألستُ مواطناً صافياً من الأشراف ياسومبيوس ؟

ــ بلى . فأنت مواطن رومي أصيل متحدر من أب وأم روميين .

ــ ألست صاحب أرض ومزرعة وعبيد ؟

ــ بلى يافلفليوس .

ــ ألم أدل بصوتي حتى ركب هؤلاء مناصبهم ؟

ــ أدليت يافلفيلوس .

ــ فكيف تعمل لي عملة كهذه ؟ أليس هذا ظلماً ؟

ــ ظلم يافلفليوس ، ظلم .

ــ ثمة آثم إذن عملها .. سأقتله وحق جوبتر .

ــ لاتحلف يافلفليوس . فعندما ستجد المذنب الحقيقي لن تقدر على قتله . خنجرك لن ينزل في صدر القاتل ، بل في غمده .

ــ حلفت يميناً معظماً .. وسترى .

أطراف عباءتي تتطاير ، خنجري في يدي ، سألت مدير الناحية بلاكيوس :

ــ آأنت من يعتقل ولدي لأنه قال الحقيقة ؟

ــ ليس لي ذنب . انظر ، ها قرار خطي من مدير المنطقة ركضت الى مدير المنطقة :

ــ إني أنفذ ماأمرت به . انظر ، ها قرار خطي من المحافظ زيباريوس .

ركضت الى المحافظ :

آأنت من يعتقل ابني ؟

ــ لا يا فلفليوس . أنا أيضاً حزنت لاعتقال ابنكم الذي قال الحقيقة .

ــ من الآثم إذن ؟ أروني الأوراق وجدران الدواوين .. ألأن ابني قال الحقيقة ، جاءت هذه الأوراق والجدران لتعتقله ؟ آأقاتل الأوراق بخنجري ، أم أمزق الجدران بأسناني ؟ قل لي من هو عدوي .

قدم لي زيباريوس مجموعة من الأوراق :

ــ ها قرار مجلس الأشراف ، وتواقيع ثلاثة منهم عليه .

سحبت نفساً ، هرعت إلى مجلس الأشراف :

ــ ألست فلفليوس الذي يبيح دمه فداء لروما ؟

ـــ تحية لمواطن روما البطل ، أفضل عضو في حزبنا ..
ـــ لتغِر التحية مع البطل في جوف الأرض . آأنتم من يحتقل ابني ؟
ـــ نحن ؟ كيف نعمل عملاً كهذا ؟ الكونسول هو الذي أمر .
ـــ الكونسول ؟ سينال جزاء هذا الظلم .
خرجت إلى أمام الكونسول أو كتاميروس ، وخنجري في يدي صحت به :
ـــ هل أنت عدوي ؟
ـــ هل جننت يافلفليوس ؟ أنا لست ملكاً ولا امبراطوراً . روما تدار بحكم جمهوري . هاك قرار اعتقال ابنك .
ـــ الأوراق الأوراق .. دائماً تظهر الأوراق لي .. وهل هي من يحتقل ابني ؟ ليخرجن أحد ما أمامي .
ـــ القرار من مجلس الشيوخ يافلفليوس . القرار قرارهم ..
انتفضت كالريح ... سأجد عدوي حتماً . في الطريق صادفت رجل الشؤم حسابيانوس ، الرجل الذي يكتب مسرحيات يغمز فيها من قناة مجلس الشيوخ :
ـــ أرأيت ياحسابيانوس ؟ يحتقلون ابني لأنه قال ان الطريق المؤدية الى روما مغلقة ؟ أليس هذا تعسفاً ؟
ـــ بلى ، إنه تعسف .
ـــ ومن الظالم ؟ من عدوي ؟.. وفوقها يطلعونني على أوراق عليها أوامر .. آأحارب الورق ؟
ـــ كيف ستواجه الفاعل إذن ؟
ـــ وحق جوبتر لأجعلن جثته طعاماً للطيور الجارحة .
هو الآخر كرر ماقاله سومبيوس :
ـــ إذا عثرت على الفاعل فلن تستطيع فعل شيء .
ـــ لاأستطيع ؟ سترى . لقد حلفت أيماناً معظمة على أنني سأعثر على أول من أصدر هذه الأوراق .
ـــ إنه مجلس الشيوخ بلا شك .
ـــ نعم .
ـــ ومن هم أعضاء مجلس الشيوخ ؟
ـــ إنهم أعضاء حزبنا ..

ـــ ومن انتخبهم ؟
ـــ أنا .
ـــ وبعد ؟ هل ستظل تبحث عن المذنب ؟
رفعت خنجري وهويت به على صدري فاصطبغت عباءتي البيضاء باللون الأحمر .. قتلتُ المذنب !
لاشيء أسوأ من أن يتذكر المرء أنه قد عاش في لبوس آخر ، في عصر آخر ..
هل بينكم من عاش مثلي في جمهورية روما عام ١٢٨ قبل الميلاد ؟

يامواطني ... احمدوا

كان ، في قديـ .... م الزمان ، على هذه الأرض المطحية ، مكان : أطرافه جبال ، أواسطه بساتين . مياهه جارية ، سماؤه صافية . في هذا المكان ، وكما هو الحال في كل مكان ، كان ثمة كائنات أخرى ، غير الانسانِ .. زواحف ، صراصر سامة ، عناكب . لم تكن تلك الكائنات كثيرة ، بالقياس الى الأماكن الأخرى ، وكذلك لم تكن قليلة ، لذلك لم تلفت انتباه أحد .

كان على رأس تلك الدولة حاكم يدعى (الباش باي) ، وهذا الـ (باش باي) ينتخب انتخاباً . كل من يمتلك الرغبة يستطيع ترشيح نفسه ، والناخبون ينتخبون من يروق لهم ، والحائز على أكثرية الأصوات يصبح الـ (باش باي) .

ومرت الأيام .. حصل في تلك الدولة تغير مدهش الديدان ، الأفاعي ، أمهات أربع وأربعين ، السحالي ، العقارب ، العناكب .. أخذت تتكاثر يوماً بعد يوم ، وتنمو . استطالت الأفاعي حتى صارت واحدتها بطول البلوطة ، وثخنت فصارت كجذع البلوطة . تضخمت العناكب ، تضخمت ، حتى صارت الواحدة منها بحجم بيت . كبرت السحالي حتى إن الفراخ المولودة لها كأنما هي تماسيح .. الأم أربع وأربعين الواحدة صارت بطول قطار الركاب .. أما الخفافيش فقد صارت أجنحتها وكأنها (الشوادر) .

ركز الناس العاقلون ، والعلماء المبجلون ، وذوو الفضائل والأخلاق الحميدة ، على أسباب تلك الظاهرة . فكروا ، لكنهم لم يستطيعوا ، ولابشكل من الأشكال ، معرفة سبب نمو

وتكاثر الكائنات الضارة يوماً بعد يوم .

ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد ، فقد أخذت تلك الكائنات الضارة تلسع وتعقص وتسمم الناس .. والأمر المدهش أن الملسوعين ماكانوا يموتون ، السموم تخدر العقل ، ولاتميت الانسان ، بل تُدخله في حالة من اللانوم ـــ اللاصحو ، وتعطيه شعوراً بالنشوة .. والمختلط السم بدمه يدمنه فوراً . صار هؤلاء الناس لايطيقون صبراً ، فراحوا يعضعضون أنفسهم للأفاعي والعقارب ، ويقدمون أنفسهم للعناكب ولأمهات أربع وأربعين لتلسعهم ، أو للخفافيش وللسحالي لتمتص دمهم . ولم يكن لتلك النشوة ذروة ، ومن يجرب السم لايستغني عنه البتة ، ويطلب المزيد في كل مرة . حتى إن الذين كانوا يسممون أنفسهم مرة في الأسبوع أصبحوا يطلبون السم مرة كل يومين ، ثم صاروا يتعاطونه في اليوم مرات .

بحث الرجال الذين يدركون أهمية العقل للتفكير ، الأذكياء ، رقيقو القلوب ، عن طريقة لتخليص الناس من سموم الأفاعي والديدان . لكن الآخرين ، الذين أصروا على تسميم أنفسهم ، وقفوا في وجه أصحاب الفكر أولئك .. لذا انقسم سكان الدولة الى فريقين : المدمنين سم الأفاعي والديدان ، الذين رأوا ذلك السم مفيداً جداً ، المدافعين عن حقهم في تعاطيه ، والآخرين الذين قالوا بالنقيض .

ازدادت سرعة الديدان والأفاعي وأمهات أربع وأربعين والسحالي والعقارب والعناكب في العض واللسع ، وازداد عدد مدمني السم يوماً بعد يوم .. حتى صار الآخرون قلة قليلة .

ومرت الأيام .. دخل مدمنو السم مرحلة جديدة . لقد أخذت وجوههم وأعينهم وأيديهم وأرجلهم ، من فرط تعاطيه، تتغير . صار لون بشرة اولئك الذين يعضعضون أنفسهم للأفاعي ، يتحول الى الأخضر ، في حين بدأت أجسامهم تتطاول ورؤوسهم تصغر .. وبعد حين أصبحوا لايختلفون عن الأفاعي ، يزحفون على الأرض ويعملون على عض الآخرين ، يزحفون على الأرض ، ويعملون على عض الآخرين وتسميمهم .. آخرون استطالت أصابعهم وأظافرهم ، ونحلت أيديهم وأرجلهم وامتدت ، ونبتت لهم أيد وأرجل جديدة ... وفجأة تحولوا الى عناكب ضخمة ، وصاروا يطبّون أنفسهم على الآخرين . واستمرت الأمور على هذا المنوال ، المتسممون ، المختلط السم بدمائهم تحولوا إلى أفاعي وديدان أو خفافيش أو حلزونات أو سحالي .. والآخرون ، من أجل الابقاء على انسانيتهم ، قاوموا ، كلما واتتهم الفرصة ، وبقدر ما استطاعوا ، وبقدر ماأمكنهم فعله ، وبألسنتهم أيضاً .. صرخوا :

ـــ أيها المواطنون !.. انسانيتكم احفظوا .. لاتتعقربوا ، لا تتعنكبوا .

قالوا قولهم هذا ، لكنهم لم يؤثروا على أحد . صار المتغيرون المتسممون المتكاثرون باستمرار يقولون رداً عليهم :

ــ خونة ، سفلة !

ويهاجمونهم .

ومن هنا أخذ عدد المحافظين على انسانيتهم يتناقص ، أصبحوا قلة قليلة ، يخافون من أن لايبقى على أرض تلك الدولة دَيّار من البشر .

... واقتربت الانتخابات . ولأن الرأي العام كان مع المتحولين ، فان الذي سيصبح الـ (باش باي) سيكون واحد من أولئك الذين اتخذوا هيئة الأفعى ، الدودة ، الخفافش ، العنكبوت ...

كان في تلك الدولة مثقفون فكروا (ماهذا الذي حلّ بنا ؟ كيف يمكن أن نحمي مواطنينا وننقذهم منه ؟) .. ثم توصل كل مثقف ، حسب طريقته في التفكير ، الى رأي . قال أحدهم :

ــ يجب ألا يعد في عداد البشر أولئك الذين أدمنوا السم ، والذين تعنكبوا أو تزحفوا ، اذ لم يبق من انسانيتهم شكل ولا مضمون .. وعليه ، يجب ألا يُشركوا في عملية الاقتراع على الـ (باش باي) .

لكن ، ومهما تكن هيئتهم لا انسانية ، فهم ، حين ولدوا ونشأوا ، كانوا بشراً ، وأولادهم يولدون على هيئة البشر ، ولولا اختلاط السم بدمهم لظلوا بشراً .

قال مثقف آخر :

ــ حتى يكون الانسان انساناً يجب عليه أن يأكل بالشوكة ! آخر قال (يجب أن يرتدي البنطلون مكوياً) .. غيره قال (يجب أن يحلق ذقنه يومياً) لكن هذا كله لايكفي لحماية انسانية الانسان .

ثم راح مثقفو تلك الدولة يقولون (لنر الدول الأخرى .. هل ثمة من تغير شكله ، قالبه ، مضمونه ، عندهم ؟ فإذا كان عندهم من تغير هناك ، كيف يتصرفون ؟ لنذهب ونر كيف يعالجون ذلك) .

وكما قالوا فعلوا . ذهبوا الى دول أخرى ، بحثوا في انسانها . ولكي يكونوا نافعين لشعبهم عادوا الى بيوتهم وذويهم ليطبقوا مارأوه وتعلموه هناك . وكما حصل في السابق ، تقدم كل منهم برأي حسب طريقته في التفكير . قال أحدهم :

ــ لنجعل نوافذ بيوتنا أكثر اتساعاً مما هي عليه ..

وقال آخر :

ــ لنأخذ انسان الدول الأخرى مثالاً !..

ــ لنرسل انساننا الى الدول الأخرى حتى يرى انسانها ..

حتى إن أحدهم قال (يجب أن ينط المواطن ثلاث نطات في اليوم) (يجب أن ينام في الفراش على الجانب الأيسر) .. وهكذا حتى ظهر بينهم رجل صاحب عقل مفكر . قال :

ــ اسمعوا ! أنا أعرف سبب تكاثر تلك الزواحف والصراصر . لقد اطلعت على تجارب الشعوب الأخرى وفهمت : هنالك رياح تعصف ، هذه الرياح ملائمة جداً للزواحف والصراصر في تكاثرها ونموها . وهذه الرياح تعصف من الشرق ، لقد لاحظت أثناء تجوالي أن الدول الكائنة في طرف يصد فيه الجبل تلك الرياح ، لايحدث فيها ماحدث عندنا . فتعالوا نضع عقولنا في رؤوسنا ، قبل أن يفوت الأوان ، ويحدث مايمكن أن يحدث .. تعالوا نسد الجهة التي تعصف منها تلك الريح .. ألا وهي الشرق .. وإلا فسيأتي يوم نتغير فيه جميعاً ، ونخرج عن انسانيتنا ، لنصبح أفاعي وديداناً .

ثمة من صدق هذا الكلام ، ومن ضحك غير مصدق . غير أن الذين صدقوه أخذوا العمل على عاتقهم وباشروا الحرب على كل من دخل في هيئة الزواحف السامة والعناكب والسحالي والخفافيش . لقد كانت حرب بقاء أو فناء ، دموية للغاية . حتى إن الباش باي وقف في صف الأغلبية .

كانت لتلك الدولة أسوار عالية وسميكة ، كأنها قلعة تحميها من الأعداء . وكان لكل جهة من جهات الأسوار تلك باب . وفي الوقت الذي حاول فيه الذين ظلوا بشراً اغلاق الباب الشرقي من الداخل ، استند الآخرون عليه من الخارج كيلا يغلق . وقد أريقت الدماء كالسيول .. وفي نهاية الأمر انتصر الذين كانوا في الداخل ، وبقي الآخرون خارج السور .

كسب صاحب تلك الفكرة تأييداً كبيراً وصار الـ (باش باي) .. وقال لمواطنيه :

ــ احذروا من شق هذا الباب . إذا فتحتموه قليلاً لن تستطيعوا الحفاظ عليه . إنه باب إذا شُق بعرض إصبع واحدة فسيجيء يوم ينفتح فيه على مصراعيه .

بعد زمن مات ذلك الرجل الذكي . جاء بعده كثير من الباشبايات المنتخبين . وكلما كان الحال في قديم الزمان ، وفي كل زمان ومكان ، كان في تلك الدولة زواحف وصراصر . لكن ، طالما أن الباب الشرقي ظل مغلقاً ، ولم تعصف به الرياح الشرقية ، لم تتكاثر ، ولم تنمُ أكثر مما هي عليه .

ودارت الأيام .. بدأت المنازعات بين المرشحين لمنصب الـ (باش باي) . هذا يقول أنا وذاك يقول أنا . في الحقيقة لم يكن بين المرشحين أحد يريد للانسان أن يتعقرب أو يتعنكب مرة أخرى . لم يريدوا ذلك ، لكن ، ماذا بيدهم ، عليهم أن يكسبوا أصواتاً أكثر .

فكر باش باي ذلك الزمان ، فوجد أنه إذا نال ثلاثة أصوات إضافية فانه سينجح في الانتخابات . قال لنفسه :

ــ سأفتح الباب بمقدار ثلاثة أصوات .

وكما قال فعل . لم يترك منصب الـ (باش باي) لغيره .

الذين رأوه من المرشحينالآخرين فتحوا الباب أكثر ليُدخلوا منه الناخبين الذين سيعطونهم أصواتهم . هم أيضاً لم يريدوا فتح الباب على آخره حتى لايدخل الجميع ، واكتفوا بفتحه بمقدار الأصوات العشرة التي لزمتهم . ومن جهة أخرى وضعوا رجالهم ليدفعوا الباب حتى لايدخل منه أكثر من العدد اللازم .

بدأ فتح الباب لعشرة أصوات ، ثم لمائة صوت ، وفي كل مرة كان يفتح أكثر .. حتى جاء يوم فتح فيه الباب على مصراعيه .

ولأن الـ (الباشبايات) لم يرغبوا بفتح الباب على مصراعيه ، فقد أعطوا أوامرهم لرجالهم قائلين :

ــ ادفعوا من الداخل .. واصمدوا .

دَفْعٌ من الداخل ، ودفع من الخارج ، والباب : زيك زيك ، يدور على محوره .

ومنذ ذلك التاريخ والباب الشرقي لتلك الدولة : زيك زيك ، يدور على محوره .. ومايزال الـ (باشبايات) يصيحون :

ــ اصمدوا .. يامواطنيّ .. اصمد

رحلاه مع حضرة عيسى

في يوم من الأيام كان عيسى عليه السلام جالساً مع طبيب جراحة تجميل وميكانيكي سيارات في أحد الكازينوهات . كان عيسى عليه السلام يلقنهما تعاليم الدين . أثناء الحديث وجه ميكانيكي السيارات إلى عيسى عليه السلام سؤالاً :

ـــ أيها المعلم الأكبر .. إن في داخلي اندفاعاً كالنار من أجل عمل الخير للإنسان . ففي أي طريق أستطيع عمل الخير ؟

قال عيسى عليه السلام :

ـــ يجب أن تعمل الخير حسب شريعة الرب .

قال ميكانيكي السيارات :

ـــ تحسن لمن يسيئون إليك فتخجلهم من كونهم أساؤوا ؟.

قال طبيب جراحة التجميل :

- جوهر الانسان سيء . أقول هذا مستنداً إلى تجاربي .. الانسان سيء !

قال ميكانيكي السيارات :

ـــ لا . هنالك الاحسان بين الناس . ألستم أفضل انسان في مدينة أريحا ؟

الحقيقة أن طبيب جراحة التجميل أغنى أغنياء مدينة أريحا وأكثرهم حباً للخير .

دهش الميكانيكي من قول انسان على هذا القدر من الجودة : إن الناس سيئون. قال الجراح : أنا مختلف .. طوال عمري وأنا أقدم المعروف للناس .. لكنني دائماً أقابل بالسوء . وهذا يعني أن الناس سيئون ... لاأحد يعرف هذه الحقيقة كما أعرفها .

شرب عيسى عليه السلام ــ الذي لم يكن يشارك في هذا الحديث كثيراً ــ النبيذ من الكأس الفخاري الذي كان أمامه . قال ميكانيكي السيارات للطبيب الجراح :

ــ مادام الأمر كذلك فإنك ستدخل الجنة وحدك !

قال الجراح :

ــ أجل .. وخوفي من هذا ياه .. سأتضايق في جنة واسعة وحدي .

وفي خاتمة الحديث عقد الميكانيكي والجراح رهاناً حول كون الانسان جيداً أو سيئاً . فإذا صحت وجهة نظر الميكانيكي الذي يرى أن بين الناس من هو جيد ، يكون له أن يأخذ كل أموال الطبيب الجراح ، وإذا لم تصح تكون أمواله وأملاكه للجراح .

وخرج الثلاثة إلى مكان حراجي على طريق (أريحا ــ القدس) . وقف الجراح على الطريق وحده ، ليروا ماإذا كان عابرو الطريق سيقدمون له خيراً أم شراً . ولكي يريا ماسيحدث له صعد عيسى عليه السلام والميكانيكي الى قمة تلة واختبآ وراء شجرة زيتون .

صار كل منهما يدعو الله أن يحدث مايحقق قوله . فتح ميكانيكي السيارات يديه نحو السماء وأخذ يضرع :

ــ اللهم اجعل الناس يعملون خيراً مع هذا الجرّاح .

لأنه إذا تحقق رأيه سيكون مستشفى الجراح الخاص ، مزارعه ، عبيده ، أماته ، وأهم من ذلك كله الخمسمئة ألف دولار المودعة في حسابه في البنك ، ملكاً له .

ودع الجراح ربه قائلاً :

ــ اللهم اجعل الناس يسيئون إليَّ حتى أحصل على أموال وأملاك الميكانكي كلها .

فإذا صحَّ ماقاله الجرَّاح سيأخذ دكاكين الميكانيكي ، بيوته ، عبيده ، وأهم من ذلك كله المئة ألف دولار التي له في البنك .

سُمِعَ وقع أقدام من بعيد . قال الجراحُ في سره :

ــ هاه .. إنه لابد .. قاطع طريق .

وقال الميكانيكي :

ــ لابد أنه إنسان فاضل .

ولاح رجل من منعطف الطريق . وإذ رأى الجرّاح استل سكينه الضخمة وهجم عليه صائحاً :

ــ أخرج نقودك !..

ابتهج الجراح لما حدث وأخرج نقوده من جيبه وهو يضحك ويرقص . قال قاطع الطريق

مندهشاً من سرور الرجل الذي شلّحه :

ــ منذ أعوام كثيرة وأنا أعمل على التشليح ، لكنني لم أر من يبتهج لتشليحه مثلك .. وبعدما انتهى قاطع الطريق من تنبيش الجراح وأخذ كل نقوده ، وإذ كان يهم بالذهاب ، ناداه الجراح :

ــ ياقاطع الطريق المحترم .. مازال في جيبي هذا مبلغ خمسة دولارات لم تروها ، تفضلوا خذوها .

قال قاطع الطريق :

ــ لاريب في أنك رجل مكتمل الدِّين وتريد إخجالي من عملتي ، لكن هذا بالنسبة إليَّ لايعني شيئاً البتّة .

وأخذ النقود ومضى .

نادى الجراح الميكانيكي المختبىء وراء شجرة الزيتون فوق التلة :

ــ ها قد خسرت الرهان . أموالك وأملاكك كلها صارت لي . فصاح عيسى عليه السلام بصوت رقيق لكنه قويٌّ من أعلى التلة :

ــ لاتستعجل الأمور ، وأيقِنْ أن الناس جيدون ، وانتظر ! فشرع الجراح ينتظر . سُمع وقع أقدام أخرى . تفاءل كل من الجراح والميكانيكي . أحدهما يأمل بمرور انسان خيِّر ، والآخر بانسان شرير ، وراح كل منهما يتوسل إلى الله أن يكون القادم مناسباً لما ينشد .

قال الجراح :

ــ اللهم ربي .. إذا أساء إليَّ هذا الرجل فسأعمل خيراً ، سأوزع نسبة واحدٍ من أربعين من المال الذي سآخذه من الميكانيكي على الفقراء .

وقال الميكانيكي :

ــ إذا عمل القادم خيراً مع الجرّاح فسأوزع نسبة واحد من أربعين من أمواله التي سأحصل عليها ، على الفقراء .

ظهر رجل في منعطف الطريق . وعندما وصل قريباً من الجراح استلَّ سكينه الضخمة وأسندها على صدر الجراح وصاح :

ــ أطلع النقود !!

فقال الجراح مبتهجاً :

ــ ماعندي نقود .. وإذا كنتم لاتصدقون نبِّشوا ، لكن يمكنكم أن تأخذوا ما معي من أشياء ثمينة .

أخذ قاطع الطريق الخواتم التي كانت في أصابع الجراح وعلبة تبغه الفضية وقداحته وقلم حبره الناشف ذا الرأس الذهبي . ولما لم يبق شيء يأخذه فتح الجراح فمه وقال :

ــ عفواً .. انظر داخل فمي .. في الجانب الأيسر من فكي العلوي سن من ذهب .. ألا ينفعكم في شيء ؟

طرح قاطع الطريق الجراح أرضاً وانتزع سنه الذهبي . كان الجراح يتلوى من شدة الألم ، ومع ذلك يضحك فرحاً .

ــ أنت مجنون ياترى ؟

ووضع ماأخذه من الجراح في جيبه ومضى . نادى الجراحُ المختبئين وراء شجرة الزيتون :

ــ ها واحد آخر يقدمُ على فعل الشر . أنا مَنْ ربح .. لقد أصبحت أموالك وأملاكك كلها لي .

قال عيسى عيه السلام بصوت ناعم مؤثر :

ــ اصبر ، لاتقطع أملك .. انتظر !

سُمع وقع أقدام أخرى من بعيد . قال الجراح متفائلاً :

ــ ها انسان سيء آخر . من يدري أيّ فعل سوء سيرتكب معي ؟ .. سآخذ أموال الميكانيكي ! بينما كان الميكانيكي يحدث نفسه :

ــ إنه إنسان جيد .. من يدري أي معروف سيقدم للجراح .. سآخذ أمواله كلها وأتركه مفلساً جائعاً عارياً !!.

طلع رجل من المنعطف . وصل قريباً من الجراح وأسند سكينه على صدره :

ــ نقودك أو روحك ! أطلع النقود !

قال الجراح :

ــ قبلك شلحني قاطعا طريق محترمان ، لم يبق معي شيء . لكنني سأكون في غاية السرور لو سلبتم ماعليَّ . ثيابي وحذائي جديدة كلها .

شلح قاطعُ الطريق الجراح ، وإذ كان يهم بالانصراف ناداه الجراح :

ــ ياقاطع الطريق المحترم . بقي عليَّ سروالي .. ألاتريدون سروالي ؟ إنه جديد تماماً ، إنني أرتديه للمرة الأولى .

ــ إنك على مايبدو لي رجل مكتمل الدين .. لكن ذلك لا يهمني .. اشلح سروالك .

أخذ سرواله وتركه عارياً كما ولدته أمه . كاد الجراح يطير من الفرح . نادى الميكانيكي :

ـــ هيه ! إنك ترى .. هذا الآخر أساء إليَّ .. أموالك وأملاكك أصبحت لي .

قال عيسى عليه السلام بصوته الناعم الحلو القوي :

ـــ اي يارجل ! اصبر ولا تستعجل الأمور . لابد من وجود انسان جيد على وجه الأرض . وشرع الجراح ينتظر . سمع وقع أقدام ولاح رجل من المنعطف . قال الجراح مخاطباً نفسه :

ـــ لم يبق عندي مايسلبه قاطع طريق . فليكن هذا مجرماً إن شاء الله ، فيحاول إزهاق روحي لآخذ أموال الميكانيكي ..

وقال الميكانيكي :

ـــ لابد أن يطلع هذا فاعل خير ، فيعطي الجراح قطعة قماش يستره بها .

كان القادم ـــ كما بدا من تمايل قامته ـــ مخموراً ، وبيده عصا . عندما صار على مقربة من الجراح انهال على رأسه ضرباً بالعصا . والجراح يتلقى الضربات ويتوسل إليه قائلاً :

ـــ تضربون على الجانب الأيسر ، إذن واحدة أخرى على كتفي الأيسر ياأخي .

وراح الرجل السكران يضربه على جانبه الأيسر ، فيدير له جانبه الأيمن ، ثم ، ومن شدة الضرب ، سقط الجراح على الأرض وهو يئن من الألم :

ـــ أيها الشرير المحترم ، لطفاً ، اضربوني على رأسي .. وإذا كان الأمر لايضايقكم انزلوا على ظهري عَصَوَيْن أو ثلاثاً .

قال السكران :

ـــ تبدو لي رجلاً مكتمل الدين .. لكن هذا لايؤثر عليَّ بتاتاً .. هاأنذا ألبي رغبتك . وبكل ماأوتي من قوة نزل بالعصا على رأس الجراح .. ثم مضى متمايلاً .

ـــ وقع الجراح في دمه ، وصاح بالميكانيكي وهو يئن :

ـــ أموالك وأملاكك صارت لي كلها .

فظهر عيسى عليه السلام وقال بصوته القوي الذي يسحر القلب :

ـــ أي يارجل ! اصبْر ولاتستعجل . لابد من وجود انسان طيب القلب على وجه الأرض .

وسمع وقع أقدام . قال الجراح المنبطح على الأرض يئن :

ـــ هذا مجرم إن شاء الله ، ويريد قتلي .

وقال الميكانيكي :

ـــ هذا سيساعد الجراح إن شاء الله .
ظهر رجل في المعطف . فرفص بجوار الجراح المنبطح على الأرض يئن ، وقال له :
ـــ مابك ياأخي ؟ هل إن جروحك تؤلمك ؟
فقال الجراح وقد فهم أن هذا الرجل يريد مساعدته ، محاولاً ألا يسمع عيسى عليه السلام صوته :
ـــ انقلع !
أخرج الرجل من جيبه نبيذاً وزيت زيتون يريد تنظيف جروح الجرَّاح الذي كان الدم يسحُّ من أنفه وفمه .
ـــ اغرب عن وجهي .. أنا لم أطلب مساعدتك .
قال الرجل :
ـــ كيف لاأساعدك وأنت تتألم ؟
ـــ إذا أردت مساعدتي فانقلع من هنا فوراً .. حتى إنك إذا رفستني على مؤخرتي قبل أن تنقلع تكون قد قدمت إليَّ مساعدة حقيقية .
ـــ النجدة وعمل المعروف دَيْنٌ على الانسان ، فلا تمنعني من تقديم المساعدة لك ياأخي .
أصرَّ الرجل على مساعدة الجراح وتنظيف جروحه وربطها ثم حَمْلِهِ على ظهره إلى المدينة .
ـــ معروف ما معروف لاأريد .. أغرب عن وجهي ولاه .
أيقن الجراح أنه لن يستطيع إبعاد الرجل الطيب عنه ، فراح يشتمه ، لكن الرجل باشر بتنظيف جرحه بالنبيذ وزيت الزيتون ، دون أن يغضب ، ثم خلع قميصه ومزقه ولف جروحه .
تناول الجراح ـــ الذي تأكد من أنه ، بمساعدة هذا الرجل ، سيخسر أمواله وأملاكه كلها ـــ تناول حجراً من على الأرض ، واستجمع قواه ونهض على قدميه ، وأنزل الحجر على رأس الانسان الطيب وطرحه أرضاً ، ووقع فوقه .
نزل عيسى عليه السلام والميكانيكي من أعلى التلة الى جانبهما . قال الجراح للرجل الذي تحته :
ـــ نزلت علي كالبلاء ، امض بسرعة كيلا أقتلك .
قال الرجل المضروب على رأسه بالحجر :
ـــ لاأستطيع الذهاب وتركك في هذا الحال .
فهوى الجراح بالحجر علىَ رأسه بقوة أكبر ، فأرداه قتيلا . ثم وقف على قدميه مذهولا ،

ومدَّ يديه الملطختين صوب عيسى عليه السلام ، وقال :

ـــ لقد ربحت الرهان كما ترون .. لايوجد انسان جيد .. قال الميكانيكي :

ـــ وكيف عرفت ذلك ؟

فصاح الجراح :

ـــ عرفت ذلك من نفسي .. عرفت ذلك من نفسي ..

وهوى على الأرض .

وقع الميكانيكي من خوفه على أملاكه وأمواله ، وقع فوق الجراح يريد قتله .

قال عيسى عليه السلام :

ـــ احمله على ظهرك إلى المدينة ، وعندما تصل ، سلمه للجندرمه .

الخازوق الداخل في السلطان

ناقلو الآثار ومحدثو العصور ورواة الأخبار .. يروون عن ذلك اليوم رواية ، ويحكون من هذا الطراز حكاية .. كان يا ما كان ، في قديم الزمان ، دولة ؛ مياهُها غزيرة ، وطرقها كثيرة ، أهلها نبلاء ، وتربتها معطاء ، وكتّابها عظماء . كان سكان تلك الدولة يقولون : «القبطان منقذ سفينته ، فالبسْ أنت الخيش ، لألبس أنا القماش المذهّب» . لايعملون ولايفكرون إلا لأنفسهم وبأنفسهم . كل شاة برجلها تناط ، وكل حمار من حافره يُحدى .

عندما يشبع امرؤللخازوف خرين مثله فيقول : «لماذا تلزم الفطائر والبقلاوة إذن» .

وفي يوم من الأيام خرج رجل وأخذ يصيح .. صيحة في الأرض وصيحة في السماء :

ـــ آخ خ خ خخ !.. أنا بعرضكم ، إن خازوقاً يدخل فيَّ .. يدخل فيَّ خازو و و و و و .. ق ! .

في البدء لم يلتفت إليه أحد ، ولم يعره أحد انتباهاً . قال واحد :

ـــ أنا مالي ومالالخازوق الداخل في هذا الرجل .. ألف شكر لله على أنه لم يدخل فيَّ خازوق ولا مازوق !

لكن صياح الرجل (إني أتخوزق) ازداد إلى حد أنه بدأ يقلق سكان تلك الدولة كلهم .

قبض الشرطة والحرس القائمون على أمن المدينة ونظامها على الرجل الذي كان يصرخ باستمرار ، فحصوه جيداً ، فلم يعثروا على أي خازوق فيه . قالوا :

ـــ هذا الرجل كذاب . إنه يصرخ ويصيح لكي يقلق الناس . وأبعدوا الرجل عن المدينة

وسدوا عليه إحدى المغارات .

.. راح يوم جاء يوم ، طلع رئيس دورية الحرس التي قبضت على الرجل الذي كان يصرخ (إني أتخوزق) وصاح :

— إني أتخوزا!!!!! ... ق !

الأرض ارتجت من صراخه . قبض عليه الحرس والشرطة واقتادوه إلى القاضي . فحصه القاضي جيداً

— لايوجد لاخازوق ولامازوق . لو أن خازوقاً يدخل فيه لكنا رأيناه . إنكم تعكرون صفو المدينة دون مسوغ .

قال القاضي قوله هذا ، وأصدر حكمه عليه . جنزره من رجليه ورماه في الزنزانة .

مرت أيام .. شهر .. خرج القاضي الى الزقاق مطيِّراً أطراف جبته ، قاذفاً لفته وقبعته ، صارخاً :

— دخيلكوووم .. إني أتخوزق !...

كان صراخ القاضي عالياً باعتبار منزلته عالية ، حتى إن السلطان سمعه .. دهش السلطان مما يجري وقال :

— ماهذا ؟ حتى القاضي يدخل فيه خازوق ؟ انظروا جيداً لنرى ماإذا كان يوجد في القاضي خازوق حقاً !

ذهب اليه رئيس الأطباء .. قلب القاضي وثناه وبرمه وعاين كل عضو من أعضائه ، لم يرَ أي خازوق فيه .. وإذّاك قدم تقريراً يقول فيه : «لم يدخل في القاضي أي خازوق ، لكنه يتوهم أن خازوقاً يدخل فيه ليقلقنا ، ويقيم البلاد ويقعدها .. هذا لأن في عقله مرضاً .. فليُدْخل مشفى الأمراض العقلية !» .

أدخلوا القاضي مشفى الأمراض العقلية .

بعد مدة انتفض رئيس الأطباء ، الذي لم ير الخازوق الذي دخل في القاضي ، من فراشه الدافىء عند الفجر وخرج الى الزقاق زاعقاً :

— آخ .. دخيلكم .. الآن يدخل خازوق فيَّ !

الذين رأوا رئيس الأطباء على هذه الحال انطووا وراحوا يدقدقون بأيديهم على ركبهم ، ويقهقهون ، ويقولون له هازئين :

— واخ !.. هل جن رئيس الأطباء أيضاً ؟ رئيس الأطباء هذا القد قده ويتوهم أن خازوقاً يدخله ؟

وصاروا يخرجون من كل صوب ويدقون له (بالتنكات) ويصيحون (و و ووو ...) ، في حين رئيس الأطباء يصرخ :

ـــ يامواطنيَّ ! أليس بينكم من يفهم بهذه الشغلة ؟ إن مايدخل فيَّ ليس شوكة ، إنه خازوق .. وأنا لست مسروراً من هذا .. إني أموت !..

غضب السلطان وقال :

ـــ لقد زادها هؤلاء .. يزعمون أن خازوقاً يدخل فيهم ، ولا أحد يرى الخازوق . ليأت العلماء ويشاهدوا الأمر . عند هؤلاء برهان العلم ، فإذا نحن لم نستطع رؤيته ، هم يرونه .

جاؤوا بثلاثة أساتذة من أكبر المدارس واختاروهم كعلماء . فحصوا رئيس الأطباء من فرقه إلى قدمه ، قطعة قطعة .. لم يجدوا أي خازوق داخل فيه .

ـــ لايوجد خازوق داخل ولاخارج . رئيس أطباء له هذه القيمة ويحاول تضليلنا ؟ يلخبط الناس هكذا ؟

كبلوا رئيس الأطباء من يديه ورجليه ونفوه الى مكان بعيد .. ولم يمض إلّا زمن قليل حتى باشر الأساتذة الثلاثة بالصراخ :

ـــ آه ، دخيلكم ، ياإخوتي بالله .. إني أتخوزق !

فحص شيخ الاسلام ورئيس الديوان ورئيس الوزراء العلماء الثلاثة ، ثم قالوا :

ـــ يصرخون دون مسوغ .. لايدخل فيهم لاخازوق ولا مازوق .

في حين كان الأساتذة الثلاثة مستمرين بالصراخ :

ـــ أليس بين العباد من يرى ، ياإخوة الدين ؟ ها هو الخازوق .. يدخل !

رموهم في الزنزانة .

.. راح ذلك اليوم ، جاء غيره ، باشر شيخ الاسلام ورئيس الديوان ورئيس الوزراء والوزراء يصرخون صراخاً لايمكن وصفه :

ـــ آخخخخ .. رحماكم .. أي خازوق هذا الخازوق الذي يدخل فينا الآن ؟

ـــ لايوجد خازوق .. لو كان .. لكنا شاهدناه .. إنكم تكذبون .

تعال انظر ! سكان تلك الدولة ، مع مرور الزمن ، من ابن السابعة حتى ابن السبعين ، شيباً وشباباً ، صاروا يصرخون :

ـــ إننا نتخوزق !..

ـــ ليفحص الذين لم تدخلهم الخوازيق أولئك الذين يقولون إنهم يتخوزقون حتى نرى ماإذا كان ادعاؤهم صحيحاً !

فحص الذين لم تدخلهم الخوازيق أولئك الذين قالوا بوجود خوازيق تدخلهم ، فحصوهم على نحو دقيق ، لم يجدوا فيهم خوازيق . هتفوا :

ــ يعيش السلطان !.. برعايتكم لم نر أي خازوق مازوق ! هؤلاء يخرِّبون ويفسدون .

وهكذا ، بعد مرور زمن آخر انطلق الجميع يصرخون قائلين إن خوازيق تدخل فيهم .

قال السلطان :

ــ ليفحص كل الآخر ويَرَ هل حقاً يدخل فيه خازوق ؟

فحص كل الآخر ، لكن أحداً لم ير الخازوق الداخل في الآخر ، فقال كل للآخر :

ــ أنت كذاب ! أنت مافيك خازوق . الخازوق يدخل فيَّ وحدي ، ولأنك تصرخ دون سبب لم يعد صراخي يسمع .

... وقع الجميع ببعضهم .

راح وقت جاء وقت . لم يعد أحد يصرخ (إني أتخوزق) .. لقد اعتادوا الخازوق .. لاصوت على الاطلاق .. ماحدث لهم حدث لسابقيهم الذين صرخوا في البدء .

وفي منتصف إحدى الليالي خرج صوت من القصر . زلزل الصوت كل شيء فقفز الجميع من فرشهم . رمى السلطان نفسه وهو بالقميص والسروال الداخليين الى الزقاق ، وباشر يصرخ دون توقف :

ــ رحماكم .. يا رعاياي الأحبة .. الحقووني .. الخازوق يدخل فيَّ أيضاً .

قال سكان تلك الدولة :

ــ هذا سلطان ، والسلطان لايكذب .. دخول الخازوق فيه أمر مؤكد ، وإن صياحه على نحو أعلى من صياحنا دليل قاطع على أن حجم الخازوق الذي يدخل في الشخص يتناسب مع مقامه . لا ريب في أن الخازوق الداخل في السلطان خازوق سلطاني .

السماء والأرض تئنان ، والسلطان يتوسل :

ــ لماذا أنتم واقفون ؟ تعالوا أخرجوا الخازوق مني .

قال الذين كانوا حوله :

ــ ياسلطاننا ! كيف لنا أن نخرجه ؟ هذا الخازوق لايشبه الخوازيق الأخرى .. إنه لايُرى بالعين ، ولايمسك باليد ، ولا يشعر بألمه غير من يكابده . كز على أسنانك ، وبعد مدة من الزمن تعتاد الخازوق مثلنا ، وترتاح !..

الملك الذي انتخبه الغربان

كان ياما كان ، في سالف العصر والأوان ، في احدى الدول .. رجل مسكين ، جائع ، عارٍ، محروم حتى من قوت يومه.. لكنه لم يكن فاسد القلب . كان كل مايبغيه هو أن يعمل الخير للآخرين . من جهة عمل الخير كان يريد أن يعمل خيراً ، لكنه لم يكن يعرف كيف يعمله . كان يقول :

— آه آه .. لو كان عندي مايساعدني على تقديم الخير للناس !!

فيسأله سامع هذا الكلام :

— كيف ستعمل الخير ؟

فيقول :

— سأعمله .. سأعمل خيراً للإنسان ، لكن ، لتأت تلك الأيام، ووقتها أنا أعرف كيف سأعمل الخير .

وفي يوم من الأيام كان واقفاً على رأس جبل ويقول بصوت خفيض : «لو أن ربي يساعدني على عمل الخير» .. وإذا بعابر يأتي من خلفه ويقول له :

— مرحباً يابنيَّ ..

التفت محب فعل الخير إلى الوراء فرأى رجلاً بلحية بيضاء واصلة إلى زناره . قال :

— مرحباً ياأبتِ ..

— ماهذا الذي تحدث نفسك به ؟ أتريد من الله شيئاً ؟

شرح الرجل ، بقدر مستطاعه ، كيف أن همه الوحيد يكمن في تحرقه لعمل الخير .

ـــ حتى الآن ظهر الكثير من الناس الذين أرادوا عمل الخير للانسان .. لو كنت تعرف كيف تعمل الخير ماأصررت على عمله كل هذا الاصرار . عمل الخير للإنسان أصعب بكثير من عمل الشر ، الذين نجحوا في عمل الخير قلائل للغاية .

هذا ماأسداه إليه الرجل ، لكنه لم يقتنع به .

ـــ آه ، أنا لاأشابه الآخرين .. سأمحو كل الشرور من الدنيا .. لن يبقى جائع أو عطشان ، لن يبقى عارٍ ، ولن يبقى صراع أواقتتال .. سأضع كل شيء في مكانه .

قال ذواللحية البيضاء:

ـــ لكنك تطلب الكثير . أنت لاتعرف ماينبغي فعله .. لقد وُجد الكثيرون قبلك أرادوا عمل ماتنوي عمله ، وزالوا ، كانوا لا يعرفون كيف ..

قال الرجل :

ـــ وهل ثمة ماهو أسهل من عمل الخير ؟

قال ذو اللحية البيضاء :

ـــ ايه مادمت تصر على فعل الخير كل هذا الاصرار فلا تقف هنا . تجولْ ولا تتوقف ، فيأتي زمان تصل فيه المكان الذي تبغيه .

تلقى الرجل الذي يحب عمل الخير كلمات الرجل ذي اللحية البيضاء ، ومضى .

تجول الرجل أعواماً طويلة .. لم يترك مكاناً إلّا وزاره .. وكان يحكي للناس كيف انه يتحرق لعمل الخير لهم .

وذات مرة ، وكان قد مشى نهاراً بتمامه وليلاً بتمامه ، وكانت نهاية السماء ترسل أشعتها ، لاحت له مدينة . المدينة محاطة من جهاتها بأسوار كأسوار القلعة . وصل الباب الذي يؤدي إلى المدينة ، ولجها ، وعندما دخل ساحة المدينة دُهش .. وكيف لا يدهش ؟ كانت ساحة المدينة مكتظة بالناس .. أنا أقول كان فيها مئة ألف شخص ، أنت قل ثلاثمائة ألف شخص .. جمهرة من الناس لاتُرى نهايتها . غاص في الزحام . كان كل شخص يصدر صوتاً . أعطى أذنه للغطهم ، كانوا يقولون :

ـــ أيها المواطنون ! أنا أريد الخير لكم ، قولوا للغربان أن يجعلوني ملكاً . لتجعلني الغربان ملكاً ، وعندها سترون . سأقدم لكم الخير . سأجعل من أنهار هذه المدينة شراباً . سأجعل الحجر والرصيف ذهباً . سأنزل المطر من السماء . ستكون لكم يد في السمن ويدٌ في العسل . سأجعلكم تمقتون أكل الفطائر باللحم ، والبقلاوة . سترتاحون حتى تكرهوا الراحة . أيها الأخوة

المواطنون : قولوا للغربان أن تجعلني ملكاً .

دهش الرجل اذ سمع هذا الكلام ينطلق من كل الحناجر . تلفت حواليه . أليس هذا الشيخ ذا اللحية البيضاء الواصلة إلى زناره الذي التقاه قبل أعوام على رأس الجبل ؟

ـــ مرحباً ياأبت .

قال الملتحي :

ـــ مرحباً يابنيّ .

ـــ إني أسمع الناس جميعهم في هذه المدينة يقولون شيئاً واحداً ، وطالما أن الأمر كذلك لماذا يصرخون ؟

قال ذو اللحية البيضاء :

ـــ لأن كل واحد منهم يعتقد أنه الوحيد الذي يستطيع عمل الخير ، لكنه لايعرف كيف يعمله .

ـــ وهل الناس يصرخون هنا على هذا النحو دائماً ؟

ـــ لا . إنهم يصرخون في موعد الانتخابات فقط . كل عام تُجرى انتخابات . وعندما يحل موعد الانتخابات تجد كل واحد يريد أن يُنْتَخَبْ .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأن كل واحد يعتقد أنه يستطيع فعل الخير .الكل يريد عمل الخير ، وليس ثمة من يحب عمل الشر أبداً .

ـــ ومن يُنتخب ؟

ـــ الملك . هذه الدولة لاتشبه الدول الأخرى . إنها لاتورِّثُ العهد من الأب إلى الابن كما هو عليه الحال في الدول الأخرى . في كل عام يُنتخب ملكٌ جديد من بين الشعب . إذا عمل الملك الخير الذي وعد به الشعب فانه يبقى ملكاً ، وإذا حنث لايُنتخب لسنة تالية . لم يسبق أن استمر ملك في الحكم لأكثر من سنة واحدة .

ـــ طيب لماذا يصيحون : غراب .. غراب ؟

ـــ الغربان هي التي تنتخب الملك في هذه الدولة ، لذلك تراهم يصرخون على هذا النحو .

وفجأة غامت السماء إذ غطتها سحابة من الغربان حجبت الشمس وراءها . حلقت الغربان فوق رؤوس البشر وأخذت تصيح (غاق .. غاق) ، وأخذ الناس يتوسلون الى الغربان صائحين :

ــ خي الغراب ، انتخبني أرجوك .. أخي الغراب .

وإذ كانت الغربان تسعى وتزعق ، نزل منها باتجاه الأرض غراب كبير ، وأخذ يدور حول الرجل الذي كان يلف الحقل والجبل من أجل عمل الخير . دار الغراب ، دار ، وأخيراً زَرَقَ على رأس الرجل ، وصاح غاق ، ثم علا نحو السماء .

قالوا للرجل :

ــ لقد صرت ثلث ملك .. صرت ثلث ملك !!

دهش الرجل مما حدث له فسأل ذا اللحية البيضاء الذي كان بجانبه :

ــ ماهذا الذي يحصل ؟

قال ذو اللحية البيضاء :

ــ هكذا ينتخب الملك في كل عام . إذا زَرَقَ غراب على رأس رجل ما ، ثلاث مرات ، يصبح هذا الرجل ملكاً .. وهذا يعني أنك قد صرت الآن ثلث ملك . ادع الله أن يتغوط الغراب على رأسك مرة أخرى .

وقبل أن ينتهي الرجل كلامه نزل الغراب وبدأ بالدوران حول رأس الرجل ، ثم عملها مرة ثانية .

صاح الذين ملأوا الساحة :

ــ صرت ثلثي ملك .. صرت ثلثي ملك ..

ولكيلا يعملها الغراب مرة ثالثة على رأس هذا الرجل اشرأبَّ الجميع برؤوسهم بدأوا يصيحون بالغراب مستغيثين :

ــ هنا ، أخي الغراب .. هنا .. أخي الغراب .

لم يكترث الغراب لصياحهم ، واختار ، للمرة الثالثة ، رأس الرجل . قال الناس للرجل :

ــ أصبحت ملكاً .

وحملوه على أكتافهم حتى القصر .

لما أصبح الرجل ملكاً لم ينس الجميل الذي قدمته له الغربان إذ جعلته ملكاً ، فأصدر فرماناً يقضي بإزالة الفزاعات التي في الحقول والبساتين ، وبمحاكمة وإنزال العقاب بكل من يضرب الغربان بحجر ، أو يكشها . ولم يقف عند هذا الحد فأصدر قراراً يقضي بأن يقدم كلُّ بيت حفنة طعام للغربان يومياً .

بدأ الناس يتذمرون لكن دون أن تخرج أصواتهم .. فعيون الملك لاترى سوى الغربان . وهكذا مضى العام الأول ، وحلت الانتخابات .

اجتمع سكان الدولة في الساحة مرة أخرى ، وأخذ كل واحد يتوسل للغربات لتنتخبه .

الجميع يقولون إنهم سيعملون الخير للانسان . ومرة أخرى غامت السماء يملأها صوت النعيب : غاق غاق ..

كان ينتخب الملكَ غراب واحد ، لكنها ، ولكي تقدم الشكر للملك على الجمايل التي قدمها لها ، فقد نزل منها عشر غربان معاً ، زرقت كلها ، ثلاث مرات على رأس الملك السابق . ولم ينس الملك صنيع الغربان عندما أصبح ملكاً من جديد ، فأمر بأن يطعم كلُّ بيت عشرين غراباً ، وأمر ببناء مآوى للغربان تحميها من البرد والريح . ومن فرط تغذيتها أخذت تنمو وتسمن حتى صار الغراب الواحد بقد ديك الحبش .

وحل موعد الانتخابات مرة أخرى . كان الشعب قد بدأ يتذمر من ذلك الملك ويكرهه . لكن ما الفائدة ؟ فقد نزل مئة غراب كل غراب بحجم ديك الحبش واختارت رأسه وزرقت عليه ، ثلاث مرات .

أصدر الملك الذي صار ملكاً للمرة الثالثة قراراً يقول :

ــ يجب أن لاتبقى على الغربان قملةٌ واحدة . يجب أن تفلوا الغربان وتنظفوها .. وتلمعوا أرجلها وتنظفوا أستاهها .

صارت الغربان من فرط العناية وحسن التغذية بحجم الخراف ، وصارت تنمو وتتكاثر يوماً بعد يوم .. حتى جاء يوم لم تعد المدينة تتسع فيه للغربان التي نمت وتكاثرت .

ومرة أخرى تحل الانتخابات . ولكي تشكر الغربان الملك أكثر جاء منها خمسمئة غراب اختارت الملك نفسه وتبرزت عليه جميعها ثلاث مرات .

استمر الملك يأمر بالعناية بالغربان حتى أخذ الناس الذين لم يبق لهم مكان في المدينة ، يهاجرون تاركين بيوتهم وأوطانهم للغربان ، متجهين إلى السهول والجبال .

وحلت انتخابات أخرى فظهرت في السماء غربان بحجم العجول .. نعيقها يصم الآذان ، تقدم الشكر للملك .. ثم نزلت جميعها ، دفعة واحدة ، لتضع على رأسه (شكرها) .

اقترب الناس من الرجل الذي انتخب من جديد ليحملوه إلى القصر ، فوجدوا تلة من زرق الغربان ، ووجدوا الملك مطموراً تحت هذه التلة !

.. ومازال الناس يصيحون :

ــ أخي الغراب . انتخبني .. أخي الغراب .

قصة صينية

كونغ ــ صو بلدة صيادي أسماك تقع إلى الجنوب من بحر الصين . غالبية سكان هذه البلدة الوادعة تعيش من صيد السمك .

في صباح أحد الأيام بدأت قطة - غير معروف من أين ولا كيف أتت ــ تموء في مقهى بونغ ــ شيانغ لصيادي الأسماك . التقط العجوز بونغ القطة الصغيرة النحيلة بين كفيه الضخمتين . نظر في عيني القطة الصغيرة المخططة المزرقتين . قال لها :

ــ الله أرسلك إليَّ !

ثم قال لصبي المقهى :

ــ اسم هذه القطة الصغيرة (شونغ ــ بان) .. اعتن بها جيداً .

كبرت شونغ ــ بان ، واكتملت خلال أيام .

لم تصبح شونغ ــ بان محبوبة بونغ وحده ، ولكن محبوبة زبائن المقهى كلهم .

كانت لشونغ ــ بان عادة سيئة ،ألا وهي السرقة في كل الأحوال : كل قطة لصة ، لكن كشونغ ــ بان لم يُر . لم تبلغ الشهر السادس من عمرها حتى باشر الجيران كلهم يشتكون منها . كانت تخرج إلى عملها كل صباح قبل أن يرمي النهار بثقله ، مثلها مثل أي موظف شريف ، ولايأتي الظهر إلّا وتكون قد زرعت الفوضى في أرجاء الحارة . لم تترك مطبخاً لم تدخله ، أو نملية لم تلخبطها ، ولم يمر يوم دون أن تفتح غطاء قدر يغلي على الموقد لتأخذ منه

صادفت القصص المجموعة في هذا الكتاب مرحلة عجيبة بالنسبة لتاريخ الحرية في تركيا . لقد نشرت هذه القصص بين الأعوام ١٩٥٥ ــ ١٩٥٧ في مجلة آك بابا وصحيفة ديمقراط أزمير باسم مستعار . أحداث القصة الصينية هذه كانت تدور ، في أول كتابة لها ، في تركيا ، لكنني ، بعد أن رفضت معظم الصحف والمجلات ، نشرتها باسم مستعار لكاتب صيني ، على أنها قصة مترجمة . وبعد شهور نشرت القصة ذاتها في احدى المجلات على أنها قصة مترجمة لكاتب صيني . ع . ن .

قطعة سمك ساخنة جداً .

بالرغم من أذية شونغ كان الجميع يحبونها .

كانت تقوم بسرقات محبوكة ، وكان المتضررون منها يعتبرون ذلك نوعاً من (مقالب شونغ) .

في أحد الأيام جاء زبون إلى مقهى العم بونغ . وضع الكيس المحشو بالسمك الذي كان يحمله بيده على الرف . اندمج في لعب الورق ، وإذ أراد مغادرة المقهى بعد فترة ، مد يده إلى الكيس الذي على الرف وفتح فمه بعرض شبر . لقد وجد الكيس محشواً بالهواء بدل السمك دون أن يُفَضَّ أيٌّ من أطرافه ؛ كان في أسفله ثقب صغير وحسب . وقد دهش الجميع من تمكن شونغ من إفراغ كيس السمك سمكةً سمكة دون أن ينتبه إليها أحد في زحمة الزبائن .

كان ثمة سبب مهم لتقدير مهارة شونغ بالسرقة . لم يكن يقام أي اعتبار للانسان الذي لايسرق في بلدة كونغ ــ صو تلك . السرقة بذاتها ليست أمراً معيباً ، المعيب هو أن يُضبط المرء أثناء قيامه بالسرقة ، إذ ذاك يتبهدل اللص أمام أهل البلدة ولايعود يستطيع أن يوقع نفسه تحت أنظارهم ، لكونه لم ينجح في عمله . لقد وصلوا إلى حد أن لايزوجوا بناتهم للشاب الذي لايسرق باعتبار أنه لايستطيع الإنفاق على بيته .

أمست شونغ رمز بلدة كونغ ــ صو ، ومع مرور السنين تحولت إلى كائن اسطوري .

عندما بلغت شونغ الرابعة عشرة نزلت ستارة على عينيها ، المسكينة ، فتابعت ممارسة مهنتها بعينين لاتبصران .

كانت تتسلل كا الانسان إلى المطبخ بعد أن تفتح مزلاج الباب ، وفي اللحظة التي تلتفت فيها المرأة الجالسة أمام النار إلى الوراء ، تكون قد سرقت سمكة من المشواة وهربت .

النساء الثرثارات اللواتي لايحضِّرن طعام العشاء لأزواجهن صرن يتذرعن بشونغ اللصة قائلات :

ــ ماذا أعمل ؟ لقد سرقت شونغ السمك من على النار !

وفي يوم من الأيام وجدوا جثة (شونغ ــ بان) في أسفل أحد الجدران العالية . لقد سلمت شونغ روحها وهي على رأس عملها . بكى عليها سكان (كونغ ــ صو) وأعلنوا الحداد . أقيمت لشونغ مراسم جنائزية ضخمة . اجتمع على قبرها الأطفال والشبان والشيوخ .

ران الصمت على البلدة بعد شونغ .. لكن ، بعد مرور شهرين ، حصلت معجزة ارتفع بناء ضخم فوق قبر المسكينة شونغ : مصلحة الضرائب .

صار سكان كونغ ــ صو يشيرون إلى البناء ويقول أحدهم للآخر :

ــ ها قد بعثت روح شونغ !

الجوهرة التي لا يراها الأوباش

كان .. إذا واحد كان ، ألف ماكان ، في معاصر الزمان ، عندما كل شيء كان ، وسط الدخان ، والقمر الصناعي ، فر .. فر ، في حالة دوران ، وأنا رامِ حمَّالتي ، وبالنوم غرقان .. كان ، في إحدى الدول التي على وجه هذه الأرض ، خزينة ، الخزينة مملوءة بالنقود ، وبأشياء أثرية لاتقدر بثمن ، بعضها مكدس فوق بعض : نعال خيول كانت قد استباحت سبعة أقاليم ، سياط شراشيبها مشغلة بخيوط الذهب ، سيوف ذلك الطول طولها ، خناجر مرصعة ، تروس مزركشة .. السياط مزركشة ومشغلة إلى حد أن رائيها لايعرف ماإذا كانت مصنوعة من أجل جَلْد أكفال الحيوانات ، أم من أجل دغدغة أوراك السبايا الجميلات . السيوف طويلة طولاً ، كبيرة كبراً ، ضخمة ضخامة ، تبدو لك وكأن في مواجهة المحاربين الذين كانوا يحملون هذه السيوف الضخمة إلى هذا الحد ، أفيالاً أو جمالاً ، لاأقل .

هذه كلها أشياء نفيسة ، نقود العالم غير كافية لشرائها ، ولا أحد يقدرها ، في أي وقت من الأوقات ، حق قدرها . إلا أن المعروف أن هذه الأشياء نفيسة جداً لكونها مخبأة على نحو جيد يحرسها الجنود ليلاً نهاراً ، وليس ثمة من يعرف أن قيمتها كبيرة بغير ذلك ، لأن هذه الأشياء لو أخرجت من الخزينة وألقيت على قارعة الطريق لما التفت أحد ونظر إليها . قيمة هذه الأشياء لاتعرف إلّا وهي في الخزينة .

خزائن الدول الأخرى ليست غنية إلى هذا الحدّ ، لكن فيها جوهرة لايوجد مثيلها في هذه الخزينة .

سكان هذه الدولة يفكرون دائماً على هذا النحو : «ماذا نعمل كي نحصل على جوهرة مثلها ؟» .. لأنه لو كان عندهم جوهرة من هذه الجواهر لكانوا امتلكوا أغنى خزينة على وجه الأرض . غير أن إيجاد ، صنع ، الحصول على ، الجوهرة أمر صعب للغاية .. لأن هذه الجوهرة تصنع من مئات ، بل من ألوف البشر .. وكلما كانت مصنوعة من عدد أكبر من البشر ، كلما كانت قيمتها أكبر .. أضخم جوهرة في خزائن الدول الأخرى تطلع بحجم بيضة ، في حين هؤلاء راضون ، منذ زمن بعيد ، بجوهرة بحجم جوزة ، أو حتى بندقة . إن معدن هذه الجوهرة هو الحديد ، لكن ليس الحديد الذي يُستخرج من باطن الأرض الذي نعرفه ،حديد هذه الجوهرة هو عنصر الحديد الموجود في دم الانسان ... وبالنظر إلى أن دم الانسان لايحوي إلّا أقلّ من ميليغرام واحد منه ، فإن صنع جوهرة بحجم بندقة يتطلب أن يضحي الألوف من البشر بدمائهم ويموتوا من أجل هذه الغاية . إن للجوهرة المصنوعة من دم الانسان لمعاناً لاتحتمله الأعين الناظرة إليه من فرط توهجه ... لمعان الذهب يخبو بجانبها ، حتى إنها تتلامع أكثر من الشمس .. هذا اللمعان يصدره الفوسفور الموجود أصلاً في عيني الانسان وفي دماغه ، بحيث يُطلى الحديد المستخرج من دم الانسان ، بالفوسفور المستخرج من عيون الانسان ومن دماغه ، وبهذا تلمع فوق حديد الدم ، ملايين العيون . من أجل هذه الجوهرة يجب أن يقدم الألوف من البشر دماهم ، أعينهم ، أدمغتهم . غير أن العمل لاينتهي عند هذا الحد ، ذلك أن شعلة ألق المنغنيز ، المستخلصة من روح الانسان ، تشارك حديد الدم وفوسفور العين والدماغ في اللمعان ، وكذا ذرات الكربون .. وتزيدها توهجاً بلورات الصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم المتضمنة في كلوروفيل لون البشرة . إن الكلس الذي يستخرج من عظام ألوف الناس يكفي لصنع جوهرة لاتفوق في حجمها حجم بندقة ، وغير هذا ، إن جوهرة كهذه لا تصنع بسرعة كهذه ، إذ لايكفي يوم ، أسبوع ، شهر ، سنة .. يلزمنا قرون من الزمن حتى نحصل على جوهرة بحجم بندقة .

حزن ملك تلك الدولة التي تمتلك أغنى خزينة في العالم وأعوانها ، حزنوا كثيراً بالرغم من وجود نعال الخيول ، السياط المرصعة ، الأرسان المشغلة ، السيوف ، النقود .. كثير من الناس أسالوا دماءهم وبذلوا أرواحهم من أجل الحصول على الجوهرة . لكن هذا ، ولكونه حصل في أوقات وأمكنة متباينة ، راح هدراً هنا وهناك ، وذراتُ حديد دمائهم وفوسفور أدمغتهم وكلس عظامهم ، ضاعت ، ولم يستطيعوا ، بأي شكل من الأشكال ، لملمتها ليصنعوا منها جوهرة .

أصرَّ الملك وأعوانه على إيجاد جوهرة من تلك الجواهر في الخزينة ، ومن أجل ذلك ضحوا

بالآلاف من العجول والتيوس والحمير كي يصنعوا من دمائها وأدمغتها جوهرة ، لكنهم فشلوا ؛ وما حصلوا عليه لم يكن جوهرة بل قيحاً بشعاً كأنه تراب أسود .

فكروا فيما سيفعلونه ، فكروا كثيراً ، ثم قرروا أن يطلبوا واحدة صغيرة من الدول التي تمتلك الكثير من هذه الجواهر . أجابهم القائد الأول في احدى الدول .. رأساً :

ــ إن تعطوني كل مافي خزينتكم أُعْطِكُمْ جوهرة صغيرة !...

جلسوا متقابلين ، تباحثوا . أبرموا معهم اتفاقية تجارية ، ثم اتفاقية سياسية . دخل رجال الدولة التي ستقدم الجوهرة إلى الخزينة الغنية وأخذوا ماراق لهم من السيوف ، التروس ، السياط ، النعال .. وبعدما أخذوا ماأرادوا أعطوهم جوهرة بحجم بندقة .

بالنسبة إلى إدخال الجوهرة إلى الخزينة ، لقد أدخلت بالفعل ، لكن الملك وأعوانه ، وبالرغم من أن واحدهم يحملق في الشمس دون أن يرف له جفن ، لم يستطيعوا النظر إلى الجوهرة ، وبعض الوزراء أصيب بالعمى .

سألوا الدولة التي أعطتهم الجوهرة عن السر ، فأتاهم الجواب : «هذه جوهرة ؛ من ينظرْ إليها بعين خبيثة تَعْمَ عيناه .. لايستطيع النظر إلى هذه الجوهرة سوى الجيدين ، الصادقين ، الذين خارجهم منطبق على داخلهم ، الذين تنبع أقوالهم من ضمائرهم» .

حلت بهم الدهشة . أراد الرجل الذي جلب الجوهرة أن يتراجع عن ذلك لكن الذي فات كان قد فات . ولايستطيع أن يرى الجوهرة غير الطيبين والصادقين في البلاد .

جمع الملك علماء المملكة ، قال لهم :

ــ أنا رجل جيد ، صادق .. ألا ترون ذلك ؟

لم ينبس نصف العلماء بكلمة .. النصف الآخر صاحوا قائلين :

ــ لست جيداً ولا صادقاً !

إلا أن بعض أخوان الشيطان بالرضاعة من العلماء قالوا للملك :

ــ أنت أجودُ من الجيدين وأصدق من الصادقين .

أمر الملك بإخاطة أفواه العلماء الذين تحدوه ، وقال للذين لم تخرج أصواتهم :

ــ محظر عليكم العلم في هذه المملكة .

وقال للعلماء الذين قالوا عنه إنه جيد وصادق :

ــ مادام الأمر كذلك ، لماذا لاأستطيع النظر إلى تلك الجوهرة ؟ دعوني أراكم ، أنتم علماء ، فافعلوا شيئاً كي لاأظل محروماً من متعة النظر إلى هذه الجوهرة . والذي سينجح منكم في هذا سأعينه رئيساً لعلماء القصر .

ستستطيعون النظر إليها دون أن تؤذوا عينيكم .

سألهم الملك :

ـــ ولا تعمى عيناي ؟ ألا ترفان ؟

قالوا :

ـــ أبداً .. لن يحدث أي شيء .

فعلوا كما اقترح العلماء .. قلبوا الجوهرة رأساً على عقب عندئذٍ رآها الملك وأعوانه ، وكل من في القصر .. وبمنتهى الراحة .

السيد نيس والسيد أحمد

في يوم من الأيام ، في إحدى الدول ، كان رجل يدعى أحمد بيك ، يعمل في تجارة الشعير والذرة والتبن . كان غنياً جداً ، غني ، لكنه لايحب التبذير . يده مغلولة إلى عنقه .

قالت له زوجته ذات يوم :

— عتق حذاء الصبي ، علينا أن نشتري له واحداً جديداً . فغضب أحمد بيك من زوجته وقال لها :

— ماهذا ؟ كانت أمي تشتري لي حذاء جديداً كل سنتين أو كل ثلاث سنوات ، وكان أبي يغضب من ذلك ويقول لها «أيامنا كان الحذاء يخدم من خمس إلى عشر سنوات» ويضيف : «لم يبق عند الناس شرف ، لقد صاروا يصنعون ماهو فاسد» .. والآن ابننا يهري حذاء كل شهرين ؟ ألم يبق عندك شيء من الرحمة ؟

قالت المرأة :

— الذنب ليس ذنبي ، لست أنا من يهري الحذاء .

قابلت المرأة الابن باللهجة الغاضبة إياها :

— أي نوع من الأبناء أنت ؟ أبوك وأنا كنا نستخدم الحذاء عامين . لم يعد في قلوب الناس رحمة .. وهل يتلف حذاء خلال شهرين ؟

قال الولد :

— الذنب ليس ذنبي . على علمكم كنت في السابق ألبس الحذاء عاماً كاملاً . ماذا

بيدي إذا كان الحذاء يتخ ويتمزق في شهرين ؟ لم يبق عند بائعي الأحذية أية أخلاق ، إنهم يبيعون أحذية عاطلة .

ذهبت الأم وابنها إلى بائع الأحذية الذي يشترون منه . سألاه عن سبب بيعه أحذية عاطلة . قال البائع :

ـ الذنب ليس ذنبي . وأنتم لستم الوحيدين الذين يشتكون من فساد الأحذية . الكل يشتكي منها .. وأنا ، من جهتي ، لاأرغب في بيعها لكن ماذا بيدي ؟ لقد تغير الزمان ولم يبق عند الناس أخلاق .

ذهب بائع الأحذية وهو يتحرق من فساد الأحذية إلى الحذاء وسأله عن سبب صنعه أحذية قليلة المتانة . فقال الحذاء :

ـ الذنب ليس ذنبي . كنت أدفع في السابق لقاء المواد الأولية أقل مما أدفعه الآن ، ومع ذلك لاأستفيد بقدر ماأدفع . كان عند الناس شرف ، كانوا يبيعوننا مواد متينة . اليوم النعال والجلود ضعيفة التحمل وخربانة .. ليس لي ذنب في هذا ، أبداً .

منرفزاً ذهب الحذَّاء إلى التاجر الذي يشتري منه النعل والجلد . سأله عن سبب بيعه نعالاً وجلوداً قليلة التحمل . قال بائع الجلد :

ـ الذنب ليس ذنبي . وهل أحب أن أبيع زبائني نعالاً وجلوداً ضعيفة حتى ينفضوا عني ؟ الزمن تغير ياأخي ، والناس أصبحوا بلا أخلاق ولاناموس . كم معمل جلود بدلتُ ، كلها تنتج جلوداً رديئة .

ولم يقف بائع الجلود عند هذا الحد ، ذهب إلى المعمل الذي يستجر من عنده الجلود :

ـ أنا في موقف محجل جراء بيعي إياكم جلوداً فاسدة .

وأضاف :

ـ إن ماقلته صحيح ، لكن الذنب في هذا ليس ذنبي . في السابق كانت الجلود الخام التي نشتريها ونصنعها في معملنا جيدة ومتينة . اليوم لم يعد عند الناس أخلاق ، فهم ، من جهة ، يبيعوننا جلوداً رديئة ، ومن جهة أخرى يرفعون أسعارها كثيراً .

وذهب صاحب المعمل إلى تاجر الجلود الخام ونقل له الشكاوى التي تأتيه حول الجلود . فقال تاجر الجلود :

ـ ماقلته صحيح جلود اليوم ليست متينة كما كان عليه الحال في السابق . نحن نشتري

الجلود من تجار الغنم الذين يجيئون بأغنامهم إلى المسلخ .الجلود التي كنا نشتريها في الماضي كانت سليمة مثل أخلاق بائعيها .

وذهب تاجر الجلود إلى تاجر الغنم الذي يشتري منه جلود التيوس ، وحكى له الحكاية ، فقال تاجر الغنم :

ـــ الذنب ليس ذنبي . الزمن تغير ، وأخلاق البشر لم تفسد وحدها ، جلود التيوس ، هي الأخرى ، فسدت . ولو كنت بعتكم جلدي ، وطلع معكم فاسداً ، لكان الحق معكم في أن تغضبوا .. لكن ليس جلدي ماأبيعكم إياه ، إنه جلد التيس . أتصدقون ؟ حتى التيوس مابقي عندها شرف . الذنب ليس ذنبي ، إنه ذنب التيس .

واقترب تاجر الغنم ، الذي تأتيه الشكايات دائماً ، من أحد التيوس المسوقة إلى المسلخ ، وقال له :

ـــ ألا تشعر بالخجل من أنك تضعني في مثل هذا الموقف مع التجار ؟ إنهم يلومونني بسببك . يامعشر التيوس ، كانت جلودكم في الماضي أحسن مما هي عليه الآن .. حتى جلودكم فسدت ؟

لوى التيس رأسه وقال :

ـــ مالنا ، نحن التيوس ، أي ذنب في هذا . خذني كمثال : أنا أعمل بكل قواي ، بلحمي وقروني وروثي وجلدي ، كي أكون نافعاً لصاحبي . لكن الانسان ، في كل الأحوال ، سيذبحني ويسلخ جلدي ، لذا لاأريد أن أعطيه جلداً أقوى وأكثر سماكة .. لقد تبدل الزمان ، فما العمل ؟ لم تعد جلودنا متينة ومقاومة كجلود آبائنا . ماالذي بيدي لأعمله ؟ لاأستطيع تقوية جلدي وتسميكه . فالشيء الذي تضعونه قدامي على أنه شعير ، نصفه تراب ورمل ..وكذلك تقدمون لي أعشاباً فاسدة على أنها تبن ، ناهيك عن أن الكمية لاتعادل نصف الكمية التي كنتم تقدمونها في السابق . بهذا القدر من العلف يطلع جلد بهذا القدر من السماكة .

حزن التيس لانحدار جودة جلده وذهب إلى صاحبه ساخطاً :

ـــ لماذا لاتعتني بي جيداً ؟ تقدم لي علفاً قليلاً من جهة ، ومغشوشاً من جهة ثانية ؟ عظامي لاتنمو ، وجلدي لايمكن . بسببك يحملون الذنب للتيوس .

قال صاحب التيس :

ـــ ماقلته صحيح . لكن الذنب ليس ذنبي . فأنت تعرف أن الشعير والتبن اللذين أنتجتهما في حقلي الصغير لايكفيان للحيوانات ، لذلك أذهب إلى التاجر أحمد بيك وأشتري منه

تبناً وشعيراً . لقد تبدلت أحوال الدنيا ياسيد تيس . لم يبق انسان شريف على وجه الأرض .. أحمد بيك يرفع الأسعار من جهة ، ويبيعنا مواد مغشوشة من جهة أخرى . وأنا لاأستطيع أن أقدم لك علفاً كثيراً وجيداً كما في السابق .

زعل الرجل من كلام تيسه ، وهرع إلى التاجر أحمد بيك . سأله عن سبب بيعه علفاً مغشوشاً وغالي الثمن .

قال أحمد بيك :

ــ ماقلته هو الحق . لكن ليس لي ذنب في هذا . لم يبق عند الناس ناموس .. لقد تبدل الزمن كثيراً ، فالحذاء الذي كنت أشتريه في السابق لابني كان يخدمه لمدة عام كامل ، أما الذي أشتريه له اليوم فلا يقيم عنده شهرين .. فهو فاسد من جهة ، ومرتفع الثمن من جهة ثانية . وهل وقفت الأمور عند الحذاء ؟ الملبس والمأكل .. وكل شيء . من أجل ضمان عيالي يجب أن أفعل مع الآخرين كما يفعلون معي . صدقني أنا لاأعمل هذا عن قصد .. الذنب ليس ذنبي .

.. وذهب التاجر أحمد بيك ، بالغضب ذاته إلى الحذّاء ، والحذاء إلى صاحب المعمل ، وصاحب المعمل إلى تاجر الجلود الخام ، وتاجر الجلود إلى تاجر الأغنام ، وتاجر الأغنام إلى التيس ، والتيس إلى صاحبه ، وصاحبه إلى التاجر أحمد بيك ..

وكل واحد يقول للآخر :

ــ ماقلته غاية في الصحة ، لكن الذنب ليس ذنبي .. الزمن تبدل ، ولم يبق شيء اسمه أخلاق .

هم نالوا مرادهم ، ووقعنا نحن في الخفيسة[1] .

الخفيسة : نوع من فخاخ الحيوانات : حفرة تغطى بالأغصان والأعشاب وتموه ليقع فيها الحيوان . (والترجمة لهذه الجملة غير حرفية) ــ المترجم .

البرغوث وأضخم ملك في العالم

كان ياماكان .. قليل عند البعض ، وعند البعض الكثير . شبعو البطون جائعو العيون ، شبعو العيون جائعو البطون . اضرب الضارب واكسر الكاسر .. كان مكان ، فيه جَيْبُ (عليّ كسار الرؤوس) ملآن .. ولم يكن معروفاً الإنصاف في ذلك الزمان .

كان ذلك في إحدى الدول .. العائشون فيها يوزنون مرة كل سنة ، والأثقل بينهم يصبح ملك البلاد . ولهذا كان سكان تلك الدولة يأكلون ويشربون دون توقف أو استراحة ، كي يسمنوا ويزيد وزنهم .

وكان في تلك الدولة رجل نحيل ، غث . دمه نشفان وكذا نخاع عظامه . وكان ، شأنه شأن الآخرين ، يقول دائماً :

ـــ آه لو أصبح ملكاً !

يقولها والدمع في عينيه وافر ، والأكل في صحنه نادر . ماذا يأكل وماذا يشرب حتى يسمن ؟

وذات ليلة .. وبينما هو نائم في كوخه ، أخذ يهرش .. يهرش مسروراً ، ويفكر مقهوراً :

كان شيء ما يقرص جلده الملتصق بعظامه . ألقى يده على ظهره ، فتش بين فخذيه .. لم يعثر على الشيء الذي كان يقرصه . وعندما لم يقع بيده شيء راح يحك رقبته ويقول :

ـــ لو أصبح ملكاً ..

وإذّاك تناهى إلى أذنه صوت وظ وظ .. جَسَّمَتْهُ أذنه .. كان الشيء الذي يوظ يردد :

ـــ ليس لهذا الرجل دم .. ولا روح !

استمر يهرش حتى الصباح ، والوظيظ يقول :

ـــ ليس لهذا الرجل دم .. ولا روح .

قال الرجل النحيل :

ـــ من هذا ؟

وجه سؤاله إلى الظلام ، فأتاه صوت الوظيظ من الظلام يقول :

ـــ هذا أنا .. برغوث .

ـــ أين أنت؟

ـــ عند لوحي كتفيك .

ـــ تعال لأراك .

نزل البرغوث من ظهر الرجل إلى ركبته . عانى من ذلك لأنه لم تكن في معدته ولو مصة دم واحدة . سأله الرجل :

ـــ ما الذي كنت تقوله دون توقف؟

قال البرغوث :

ـــ طوال الليل وأنا أنقب في جسمك فلم أعثر على نقطة دم واحدة تُمصّ . وأنت؟ ماذا كنت تقول؟

أخذ الرجل البرغوث بين أصبعيه . وفي اللحظة التي أوشك أن يمعسه فيها قال البرغوت :

ـــ لاتمعسني ، وأنا اساعدك في أن تصبح ملكاً .

ـــ أنت برغوث ، فكيف تساعدني لأصبح ملكاً؟

ـــ تغذيني وأغذيك ، فيسمن كلانا .. وعندما تصبح ملكاً أعيش أنا على خيرك .

ـــ وكيف أستطيع تغذيتك؟

ـــ أليس لك أعداء ؟ خذني إلى أعدائك وافلتني . أمص دمهم حتى أنشفه من المص ، وتسيطر أنت على كل ما لهم وما عليهم .

خشّ كلام البرغوث في عقل الرجل النحيل . فكر فكر .. ليس له أعداء . قال للبرغوت :

ـــ أنا ما لي أعداء .

قال البرغوث :

ـــ كيف؟ لكل مخلوق على وجه الأرض أعداء . وأنت لك أعداء ، لكنك لا تعلم بهم .. فكر لنرى .

فسرح الرجل يفكر :

مَنْ عدوي يا ترى؟ هذا ، ذاك؟ هو؟ الآخر؟..

قال البرغوث :

ـــ جائز أن يكون كل هؤلاء الذين تعددهم أعداءك ، وأنت لا تدري . إن ألدَّ أعدائك وأخطرهم هم أولئك المخيفون الذين يواجهونك بالابتسام .

قال الرجل :

ـــ هذا صحيح .

وتناول البرغوث وألقاه من النافذة المطلة على دار جاره ، واندك هو تحت الأغطية الشعرية ونام . في الليلة التالية ، وبينما كان يردد :

ـــ آه لو أصبح ملكاً .. آه لو أصبح ملكاً!!

سمع ذلك الصوت الذي أصبح أكثر خشونة . نظر فوجد البرغوث . كان البرغوث ممتلئاً . قال :

ـــ انظر . في ليلة واحدة أصبحت على ما يرام . خذني لأمص دم عدوك .

أخذ البرغوث إلى دار جاره مرة أخرى . بعد مضي ليلة عاد البرغوث متضخماً كحبة بندق . قال وهو يتدحرج :

ـــ انظر . أترى بأي حجم أمسيت ؟ مصصني دم أعدائك حتى أكبر أكثر وأكثر .

ـــ أنت تسمن ، لكن أنا لا أستفيد شيئاً .

ـــ لاتستعجل الأمور . بعد مدة من الزمن ليست بالطويلة ستسمن حتى يضطروا إلى تنصيبك ملكاً .

صار الرجل يأخذ البرغوث إلى دار جاره كل ليلة ويفلته ، والبرغوث يَعُود في الليلة التالية متضخماً أكثر . لقد تضخم حتى صار بحجم الجوزة ، التفاحة ، الجرذ ..

ولما صار بحجم الجرذ فَقَدَ جار الرجل القدرة على احتمال البرغوث فأخذ عياله وأولاده وذهب ليسكن في مكان آخر . انتقل الرجل النحيل إلى بيت جاره التي هُجرت وصار يأكل فواكه أشجاره وخضار بستانه .. وهكذا تلملم وصار في وضع معقول . لكن البرغوث ما انفك يقول :

ـــ أنا جائع . ابحث لي عن دم أمصه .

وأخذ الرجل يفكر :

ـــ مَنْ عدوي ياترى؟ الشخص الفلاني لم يسأل عن صحتي صباح البارحة . أتراه عدوي؟ أم ذلك عدوي؟ هل ساعدني في شيء حتى الآن ؟

كل ليلة يأخذ الرجل البرغوث إلى بيت أحد أعدائه ويفلته هناك . أمسى البرغوث بحجم القط ، ثم بحجم الأرنب من فرط مصه الدماء . صار يدخل البيت ويمسك صاحبه من رقبته ، يمص دمه فيميته .. وصاحبُ البرغوث يستولي على أموال القتيل ، ويأكل ويشرب ويسمن . إلّا أنَّ البرغوث لا يتوقف أبداً :

ـــ أرني عدوك لأمص دمه .. أنا جائع .

أصبح البرغوث شرساً ككلب بَلْدَغ (*) ، وكلما صادف أحداً يعوي عليه ويرمي نفسه عليه . وبالنسبة لصاحبه كلبٌ أمين ، لايعصى له أمراً .

قطع البرغوث الحبل ، ربطه بجنزير .. قطع الجنزير .

عندما يمتص دماً يشبع وينام .. وعندما يكون جائعاً لايهدأ .. يصرخ :

ـــ أنا جائع .. أوجد لي عدواً لأشرب دمه .

صار إذا خطب بنتاً ولم يعطوه إياها يعتبر أهلها أعداء ، ويفلت البرغوث عليهم . وإذا داس أحد ما على رجله بالخطأ يقول له :

ـــ واخ !! أنت عدوي .

ويطعمه للبرغوث .

صار البرغوث بقد الثور . والرجل من جهته سمن . وأخيراً حلَّ أوان الانتخابات . وكما يفعل الجميع وزن الرجل نفسه . كان ثقيلًا إلى درجة أن قبان الحطب الذي كانوا يزنون به لم يحتمل ثقله فانقطع .

قال الأهالي :

ـــ لم يتوج على رؤوسنا ملك بهذه الضخامة حتى الان . إنه أكبر ملك في تاريخنا . عاش الملك الكبير .

(*) نوع من الكلاب الشرسة ـــ المترجم .

يهيصون ويصفقون حاملين الملك حتى القصر . جلس البرغوث الشرس بجوار عرش الملك . وعندما حلَّ الليل أخذ يرفس ويصرخ :

ـــ أنا جائع .. أريد دماً .. أريد روحاً .

نادى الملك كبير الأعوان :

ـــ إحْص لي أعدائي في مملكتنا وأحضرهم إليَّ حالاً .

قال كبير الأعوان :

ـــ رحماك يا مولانا . ليس لكم في المملكة أعداء . أنتم لم تصبحوا ملكاً بالقوة . لقد وزنكم الشعب ، ولكونكم طلعتم الأثقل أصبحتم الملك .

ـــ هذا مستحيل . أأصبح ملكاً ولا يكون لي أعداء؟ أسرعوا واعثروا على أعدائي وهاتوهم .

دهش كبير الأعوان لهذا التصرف . لكن ماذا بيده؟ قرار ملكي . أعطى أمره للأعوان ، والأعوان لمن يليهم .. حيثما وجدتم عدواً لملكنا اقبضوا عليه وهاتوه .

وبدأوا يبحثون عن عدو . قال كبير الأعوان مدفوعاً بخوفه على نفسه :

ـــ كل من يلتفت جهة اليمين عدو لملكنا .. اقبضوا عليه وأحضروه!

من لم يسمع الأمر والتفت يميناً عُدَّ من أعداء الملك وجيء به . أكلهم البرغوث جميعاً بشرقة واحدة . أكلهم ، لكنه لم يشبع :

ـــ أريد دماً .. إني جائع .

ويضرب رأسه بجدران القصر فتهتز الأساسات . قال كبير الأعوان :

ـــ من التفت جهة اليسار فهو عدو لملكنا .

الجميع لايلتفتون جهة اليمين ولا جهة اليسار ، وكل من التفت بالخطأ قبض عليه وجيء به .. يرتمي البرغوث الذي أمسى بحجم الفيل عليهم ، يمتص دمهم ، ويسمن . عندما يصرخ :

أنا جائـ.....ـع!

تتزعزع الأرض والسماء .

ولكي يوجدوا للملك أعداء يقدمونهم للبرغوث اعتبروا عدواً للملك كل من ينظر الى الأمام ، الخلف ، الأسفل ، الأعلى .. صار الناس في تلك الدولة ، لئلا يُعدوا من أعداء الملك وتزهق أرواحهم ، يمشون مغمضي العيون ، لاينظرون إلى أي جهة . والملك يصرخ :

ـــ يلزمني أعداء .. أسرعوا .. دبروا لي أعداء .

وكيف لايصرخ والقصر لم يعد يتسع للبرغوث . ازدادت شراسة البرغوث إلى حد أن قال للملك :

ـــ إما أن تدبر لي دماً أمصه أو أمص دمك .

إذا لم يجد الملك أعداء فسوف يخسر نفسه . والناس ، كيلا يعتبروا أعداء للملك ، ما عادوا يخرجون من بيوتهم . ماذا يعملون ؟أسسوا منظمة أسموها (منظمة البحث عن أعداء).. ولأن البرغوث يحتاج في كل يوم إلى مزيد من الأعداء فقد أخذت المنظمة تتوسع يوماً بعد يوم ، وصار واحدهم ، كي يحمي نفسه ، يقول عن الآخر :

ـــ هذا عدو ملكنا .

ويشيء به .

والبرغوث لايشبع أبداً ولا بشكل من الأشكال . كيف يشبع وهو كلما امتصَّ دماً سمن ، وكلما سمن جاع؟

صاروا يخرجون المختبئين في بيوتهم ويسألونهم :

ـــ ما اليوم؟

فإذا كان اليوم هو الأربعاء وقالوا :

ـــ اليوم أربعاء .

يعتبرونهم أعداء للملك ويقبضون عليهم ويرمونهم أمام البرغوث .

صار الجميع يقولون عن يوم الأربعاء (إنه الخميس) . لكن هذا لم يكف أيضاً ، حوافر البرغوث على الأرض وظهره صار في السحاب . كبر وأخذ يهمر على الملك :

ـــ دبر لي دم عدو أمصه أو أبتلعك !

ومن خوفه من البرغوث صار الملك يرى من حوله كلهم أعداء ، كائناً من كان في القصر يزعق بهم :

ـــ أنتم أعدائي!

ويرميهم في شدق البرغوث ذي اللهب العريض وكأنه باب فرن .

قدم له الأعوان كافة ، رؤساء الأعوان ، وكبيرهم . أطعم (منظمة البحث عن أعداء) للبرغوث . كبر البرغوث إلى حد أنه ناخ بجسده الضخم المترهل فوق البلاد . فتح فمه ومد لسانه للملك كأفعى جبارة . قال :

ـــ أنا جائع . أوجد لي دماً أمصه .

نظر الملك إلى يمينه ، نظر إلى يساره ، نظر خلفه ، نظر أمامه ، لايوجد أحد سواه . هرب . لكن أين المفر؟ الملك الضخم يطلع بجوار البرغوث بحجم قملة . وبشعرة من أطرافه بطول غصن شجرة أمسك البرغوث بالملك . صاح به وهو ينفث اللهب :

ـــ أرني عدوك حتى أشرب دمه . أنا جائع .

بكى الملك وتوسل . رمى نفسه على الأرض قدام البرغوث . لكنه هذا لاينفع :

ـــ أرني عدوك لأمص دمه .

عندئذ أشار الملك بسبابة يده اليمنى إلى صدره . عمل البرغوث : هُلُلُلُبْ .. وابتلع أضخم ملك في العالم .

كلب الراعي والقطار

وضعت النعاج مواليدها من الخراف . القطيع ، كما هو دأبه دائماً ، يرعى على السفح . فوق التل كلب حراسة ضخم . نظر الكلب في الاتجاهات الأربعة ليرى مإذا كان ثمة خطر يتهدد القطيع الذي يحرسه . أسند الكلب الضخم رأسه إلى قائمتيه الأماميتين . كان يستعرض القطيع الذي كان يرعى من أعلى التل وكلما سمع صوتاً تنتصب أذناه ، ليعرف مإذا كان ثمة خطر .

من جوار التل الذي كان يرعى الغنم عليه تمرُّ سكة القطار . حالما يخرج القطار من النفق فإنه يمر من تلك النقطة المحاذية للتل .

ابتعدت بعض الخراف باتجاه سكة القطار أثناء لعبها ، فقفز كلب الحراسة ـــ إذ كان في حالة ترقب دائم ـــ من المكان الذي كان متمدداً فيه بسرعة ، ودفع الخراف معيداً إياها إلى القطيع . كان اثنان منها يحاولان الدخول إلى الدغلة فقطع عليهما طريقهما وأعادهما ، وعاد هو ليتمدد في أعلى نقطة من التل .

سمع صوتاً . إنه صوت القطار . قفز كلب الحراسة من مكانه واتجه كالسهم صوب الجهة التي كان الصوت يأتي منها . كان القطار قد خرج للتو من النفق . لم يفكر كلب الحراسة في كون القطار أكبر وأقوى منه . ليكن مايكون فهو سيرتمي فوقه ليحمي أغنامه .

لو كان كلب الحراسة استطاع الركض بسرعة أكبر لاصطدم بالقطار وجهاً لوجه ، لكن ، عندما وصل إلى السكة الحديدية ، كانت آخر مقطورة من القطار وآخر عجلة من عجلاته تبتعدان عنه .

لم يكن للقطار مع ذلك علم بقطيع الغنم ولابكلب الحراسة الذي يحرسه . كان سائراً على السكة التي مدت له منذ زمن بعيد لا يستطيع الخروج عنها قيد أنملة .

انتصبت أذنا كلب الحراسة الضخم وارتفع ذيله في الهواء وأخذ ينبح :

ـــ هاو هاو هاو .. إذا كنت تثق بنفسك فلا تهرب .

القطار سائر على سكته والكلب ينبح وراءه :

ـــ لاتهرب ولاه ! هاو هاو ...

أخذت المسافة بين القطار والكلب تتسع مع استمرار المطاردة . وبسبب الركض والنباح صار الكلب يسحب نَفَسهُ سحباً . صوته مثل منفاخ كور الحداد يعلو وينخفض .. وينبح :

ـــ هاو هاو هاو ...

ابتعد القطار أكثر وأكثر ، ومع مرور الوقت بدأ يتضاءل حجمه ، وكلما تضاءل حجمه يُسَرُّ كلب الحراسة :

ـــ كيف أجعل القطار أصغر حجماً ؟ هاو هاو .. إنه يتضاءل من خوفه مني ، هاو هاو ..

لقد أصبح كلب الحراسة كطير طائر ، والقطار لم يكن يسمع نباحه أو يراه . كان يتقدم في طريقه إلى المحطة وفقاً للبرنامج الزمني المبلَّغ إليه . كان كلب الحراسة وراءه والمسافة بينهما تكبر .. ثم أصبح القطار من فرط تنائيه بحجم إصبع .. ثم كنقطة .

عندما لم يعد يرى القطار توقف كلب الحراسة . لم تبق عنده قوة تساعده على أن يتقدم خطوة . راح ينبح قائلاً :

ـــ لقد أزلته من الوجود نهائياً . أزلت قطاراً عملاقاً .. من خوفه !. هاو هاو هاو ..

ارتخت أذنا الكلب وقفل راجعاً يمشي ببطء ويحرك قوائمه بصعوبة . لكنه بقي يفخر بنفسه على نحو مستمر :

ـــ كيف جعلت القطار العملاق يهرب .. هاو هاو هاو .. حميت قطيعي منه .. القطار ، من خوفه مني تبخر .. لم يبق منه دخان حتى .

أضحى مسروراً لأنه حمى قطيعه من خطر القطار . تسلق التل بصعوبة ولم يعد يمتلك القدرة على النباح .

لكن ماهذا ؟ لم يبق على التل غنمة أو خروف . كانت العظام وبقع الدم وجزز الصوف متناثرة هنا وهناك .

عرف كلب الحراسة أن قطيع ذئاب قد هاجم الأغنام وأكلها . كانت جثث الأغنام مرمية هنا وهناك .

صعد كلب الحراسة إلى أعلى نقطة من التل . نظر إلى الجهة التي مضى فيها القطار . قال مثنياً على نفسه :

ــ لقد تصديت للخطر الأكبر . أزلت قطاراً ضخماً .... خاف مني .. هاو هاو.

وتمدد على الأرض منهكاً وراح يستعرض جثث الأغنام بسرور .

دولة المتشائين

كان ياماكان .. أنت كان عندك .. أنا ، عندي ماكان . كان ، في ذلك الزمان ، على وجه الأرض ، دولة . كان سكان تلك الدولة يعيشون في هناء وسرور . وإذ بوباء غير معروف يعصف بهم . أخذ ذلك الوباء يجعل بعض المواطنين في تلك الدولة ينحفون ويهزلون والبعض الآخر يسمنون ويتضخمون .

أخذ طول النحيفين يتناقص مع مرور الزمن ، لكن الهزال ونقصان الطول يحصلان ببطء شديد ، بحيث أن أحداً لم يكن لينتبه إلى أنه كان يقصر أو إلى أن الآخرين كانوا ينحفون . كانوا ينحلون في اليوم الواحد بمعدل خمسة إلى عشرة غرامات وينقص طولهم بمعدل سنتمتر واحد أو سنتمترين. صاروا ينحفون ويتضاءلون ويصغرون ويقصرون .. حتى جاء وقت أصبح واحدهم فيه بثخانة العكاز ، وبطول محراك التنور .. واستمروا في القصر والنحول .

على الطرف النقيض كان أناس آخرون يسمنون ويتضخمون يوماً بعد يوم . وكما كان الآخرون ينحلون ويقصرون ، ولأن هؤلاء كانوا يطولون بمعدل مليمترات في اليوم ، ويزيد وزنهم بين خمسه وعشرة غرامات ، لم ينتبهوا إلى تضخمهم وتضخم رفاقهم ، أصبحت هاماتهم كالمداخن ، وجذوعهم كالسفن .

كان عدد المتضخمين متخالفاً مع عدد الناحلين المتضائلين .. عدد هؤلاء لايساوي عدد أولئك . كان يتضخم شخص واحد مقابل كل خمسة إلى عشرة أشخاص ينحلون . صار أطفال الصغار يولدون صغاراً كحب البندق وأولاد المتضخمين بالمقابل يولدون ضخمين كصغار الفيلة .

ظن المولودون حديثاً من الصغار والمولودون حديثاً من الكبار أن هذا الوضع قائم منذ الأزل ، لذلك لم يلحظوا أي خلل أو (لاتناسب) أو لا واقعية في هذا .

كان هؤلاء ينظرون إلى من هم أصغر منهم ويقولون برضا «الحمد لك يارب !.. هنالك من هم أصغر من الصغير .. نحن إذن بخير» .

إلا أن الواحد من المتضخمين كان عندما يرى من هو أضخم منه يقول بحرقة «يارب !.. اجعلني أضخم منه يارب» . وكان الرب يستمع إلى دعائهم ويحقق أمانيهم فيضخمهم يوماً بعد يوم .. حتى أتى يوم لم تعد البيوت التي يسكنونها ، الأسِرَّة التي ينامون عليها ، الطرق التي يمشون عليها .. تتسع لهم . وبدأوا يعملون : صارت سيقانهم تمرق من تحت اللحف فوسعوا اللحف بما يناسب سيقانهم .. شقوا الطرق بما يناسب جذوعهم ، رفعوا الأبنية بما يناسب أطوالهم .

جاء يوم أصبحوا فيه لايستطيعون المرور من الطرق التي شقوها ، أو الدخول من أبواب البيوت التي شيدوها ، ولم تعد تتسع لهم اللحف التي وسعوها ، فوسعوا بيوتهم وطرقهم ولحفهم من جديد . أمست الساحات صغيرة فوسعوها ، المدينة التي يعيشون فيها غدت ضيقة هي الأخرى فخرجوا إلى الأطراف ، استمروا يتوسعون وينتشرون بقدر ما يستطيعون .

أما الذين كانوا يتضاءلون فقد أخذوا يضيِّقون الأشياء بقدر ما يلزم ، حتى غدوا ، بعد حين من الزمن ، يدخلون قشرة البطيخة أو الجوزة أو البندقة ، على أنها بيت .. ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل صغروا وصغروا حتى صاروا يُفقدون بعد زمن ، ولايرون بالعين المجردة ، لايرون إلَّا بالمجهر . وكانوا يعتقدون أن هذا الأمر طبيعي ، فلم يشتكوا من شيء .

راحت أيام جاءت أيام توقف فيها البدينون الضخمون عن النمو ، لابل إنهم ، هم الآخرين ، أخذوا يتضاءلون . لكن تضاؤلهم لم يحدث بطيئاً كنموهم ، كان فجائياً . الذي كان يطول بمعدل ملمتر أو ملمترين يومياً صار يقصر بمعدل شبر أو شبرين .. والذي كان يسمن بضعة غرامات في اليوم أصبح وزنه ينقص عشرة كيلو غرامات دفعة واحدة . الذي كان ينام ووزنه طنان وطوله خمسة أمتار ، صار يستيقظ صباحاً فيجد طوله قد غدا مترين ووزنه مائتي كيلو غرام .. يذوبون بسرعة كبيرة .. حتى جاء وقت أصبحوا فيه لا يعرفون أنفسهم وصاروا يرتعبون من أشكالهم في المرآة . حل بهم خوف عظيم حتى إنهم ، من فرط خوفهم من أن يصغروا حتى يصبحوا غير مرئيين ، باشروا يزهقون أرواحهم ، صاروا ينتحرون الواحد تلو الآخر ؛ والبكاء والزعيق من كل أنحاء المدينة يشق عنان السماء :

ـــ إننا ننحل !..

ـــ نذوب ...

ـــ نتلاشى ..

لكن البكاء والحزن والولاويل لم تُجدهم نفعاً ، فقالوا : «تعالوا نضع عقولنا في رؤوسنا قبل أن نتلاشى نهائياً ونبحث عن طريقة للخلاص من هذا التضاؤل الذي لايتوقف» . لم يعودوا راغبين في أن يكبروا ويتضخموا ، بل إنهم رضوا بأن يبقوا على ماهم عليه . راجعوا الأطباء ، كانت حالة الأطباء أسوأ . الكل يفكر بنفسه .. يصغرون ويضمحلون وأعينهم مفتوحة .

وباءخطير مُعدٍ ينتقل من هذا إلى ذلك . أعطاهم الأطباء أدوية للسمنة ، حقنوهم بحقن داعمة للعظام ، نصحوهم «كلوا كثيراً» وقالوا لهم «لاتحزنوا ولاتغتموا».. لكن.. لكن ، لافائدة . وإذ ذاك قال مواطنو تلك الدولة ، بعدما صفنوا وفكروا «لنبحث عن خبير في دولة أخرى علَّه يجد لمشكلتنا حلاً» .

ومثلما قالوا فعلوا . استدعوا أكبر خبير سمنة في العالم . جاء الخبير ، عاين الذين كانوا ينحلون ويتلاشون . قال :

ـــ إنه ليس مرضاً جديداً . لقد ظهر في أماكن أخرى من العالم .. ومهما يكن خطيراً فإن له علاجاً .. سأقيم بينكم مدة من الزمن ، افتحوا أعينكم وآذانكم وراقبوني ، وافعلوا ما سأفعله بالضبط .. وسترون إذا فعلتم مثلما أفعل كيف سيتوقف تلاشيكم ونحولكم ، وكذا نموكم وتضخمكم .. ستظلون هكذا كما أنتم .

قال قوله هذا ، ثم وزن نفسه وقاس طوله أمامهم . طلع وزنه ٧٥ كيلو غراماً وطوله ١٧٩ سنتمتراً .

لم تفارق أنظار سكان تلك الدولة الخبير لكي يعرفوا ماذا سيفعل . الجميع فتحوا أعينهم وآذانهم .. لم يرفعوا أبصارهم عنه إطلاقاً . أقام الخبير في تلك الدولة أربعين نهاراً وأربعين ليلة ، ثم جمع المواطنين حوله وقال :

ـــ ها قد عشت بينكم كل هذه الفترة ، وقد رأيتم مافعلت ، فإذا فعلتم وعشتم كما عشت فإنكم ستتخلصون من هذا الوباء .

غير أن سكان تلك الدولة لم يروا الخبير يفعل شيئاً مختلفاً عما يفعلونه .. وإن كانوا قد رأوا شيئاً فإنهم لم يفهموا كنهه . قال الخبير :

ـــ وها أنذا أزن نفسي أمام أعينكم ...

وزن نفسه ، ٧٥ كغ ، قاس طوله ١٧٩ سم .. كما يومَ جاء ، لاسَمِن ولانحف . دهش

سكان تلك الدولة عن بكرة أبيهم . تساءلوا «ما الذي فعله الخبير خلافاً لما نفعل حتى إنه لم ينحل ولم يقصر ؟» .

صعد الخبير إلى السفينة . وبينما كان يغادر قال :

ــ أفهمتم ياه ..؟ افعلوا مثلما فعلت .. أستودعكم الله .

ولأن الخبير كان قد أمضى الليلة البارحة دون نوم ، فقد فتح فمه وتثاءب بعدما لفظ عباراته .. تثاءب حتى ظهرت لهاته .

عندما رآه سكان تلك الدولة صاحوا جميعاً مسرورين :

ــ تمام !..

ــ الخبير تثاءب !..

ــ الخبير تمطى !..

ــ فهمنا سبب عدم نحوله .

ومنذ ذلك اليوم وسكان تلك لدولة يتثاءبون ويتمطون لأن الخبير تثاءب وتمطى .

توقف نقصان طولهم ونحولهم وصغرهم فعلاً .. بقي الضخمون ضخمين والصغار صغاراً . لم يطرأ أي تغيُّر .. ذلك أنهم من فرط مايتثاءبون ويتمطون ماعادوا واجدين وقتاً ليعيشوا ، حتى يكبروا أو يصغروا .

ومازالوا يتثاءبون ويتمطون حتى تاريخه .

كونوا بشراً ياصغاري

جمع أبو النمل وأمُّ النمل صغار النمل حولهما ، وأعطياهن درساً نملياً . اختتم أبو النمل درسه قائلاً :

ـــ ياصغاري !! اعملوا على أن تكونوا في هذه الحياة نملاً . لاتتخلوا عن نمليتكم في أي وقت من الأوقات .

تساءلت الصغار :

ـــ وكيف نكون نملاً ؟ ماهي طرق التنمل ؟

قال أبو النمل :

ـــ خذونا مثالاً لكم .. اعملوا كما نعمل .

تطلع صغار النمل إلى النمل الأب والنمل الأم وعملن مثلما كانا يعملان . طمرن الطعام في الصيف تحت التراب ، وضعن بيوضهن عندما حان أوان وضعها ..

جمع أبو النمل وأم النمل أبناءهما ثانية .. قال لهن النمل الأب :

ـــ ياأبنائي ! أنا على وشك الموت ، أنا مبسوط منكم جميعاً . لقد أصبحتم نملاً .. لم يتخلَّ أحد منكم عن نمليته . إنني مسامحكم ، والله يرضى عليكم .

* * *

جمع أبو السمك وأم السمك فراخهما حولهما ولقناهن درساً سمكياً . أنهى السمك درسه على النحو الآتي :

ـــ ياصغاري ! اعملوا على أن تكونوا في هذه الحياة سمكاً . لا تتخلوا عن سمكيتكم في أي وقت .

استوضحت الفراخ :

ـــ وكيف نكون سمكاً ؟ ماهي طرق التسمُّك ؟

قال أبو السمك .

ـــ خذونا مثالاً ! اعملوا مثلما نعمل أنا وأمكم !

نظر فراخ السمك إلى السمك الأب والسمك الأم وعملن مثلما يعملان . سبحن في البحر ، ابتلعن السمك الأصغر منهن ، وبَلَّعْنَ أنفسهن للسمك الأكبر منهم ، بضن وتكاثرن .

جمع السمك الأب والسمك الأم أبناءهما حولهما . قال السمك الأب :

ـــ ياأبنائي ! لقد كبرتم واكتملتم .. أصبحنا نستطيع أن نموت باطمئنان . أنا مبسوط منكم جميعاً ، فلقد صرتم سمكاً ، ولم يتخلَّ أحد منكم عن سمكيته . لم تضع جهودنا هدراً . سامحتكم ، والله يرضى عليكم .

جمع أبو البط وأم البط فراخهما حولهما ولقناه درساً بَطِّياً اختتم الأب درسه هكذا :

ـــ ياصغاري ! اعملوا على أن تكونوا في هذه الحياة بطاً . لا تتخلوا في أي وقت عن بطيتكم .

قالت الفراخ :

ـــ وماذا يتوجب علينا أن نعمل حتى نكون بطاً ؟ ماهي الطرق التي تجعل منا بطاً ؟

قال الأب :

ـــ هينة للغاية . اتخذوا منا مثالاً . انظروا كيف أتصرف أنا وكيف تتصرف أمكم وقلدونا .

تطلع فراخ البط إلى أبيهن البط وأمهن البطة وفعلن مثلما كانا يفعلان . صرن يوكوكن واك واك ، يسبحن في الماء ، يمشين على اليابسة ، يتناكحن ، يبضن ، وتجلس إناثهن (قرقّة) ، ويفقسن فراخاً .

جمع أبو البط وأم البط أبناءهما مرة أخرى . قال البط الأب لها :

ـــ ياصغاري ! لقد كبرتم ونضجتم ، وصار كل منكم بطاً جيداً ، لم يحد منكم عن بطيته . لم يذهب تعبنا سدى . الله يرضى عليكم .

قال الأبناء :

ـــ نحن لم نأت شيئاً من عندنا . لقد نظرنا إليكما وقلدناكما .

* * *

جمع الكلب والكلبة جراءهما حولهما ولقناهن درساً كلبياً . اختتم الكلب درسه قائلاً :

ـــ ياصغاري ! حاولوا أن تكونوا في هذه الحياة كلاباً . لاتتخلوا عن كلبيتكم أبداً .

تساءلت الجراء :

ـــ وماذا نعمل حتى نكون كلاباً ؟ ماهي طرق التكلب ؟

قال الكلب الأب :

ـــ سهلة جداً . خذونا مثالاً ؛ اعملوا مثلما نعمل أنا وأمكم .

تطلعت الجراء إلى الكلب الأب والكلب الأم وقلدنهما . نبحن ، حرسن ، تعلمن الأمانة ، تناكحن وتوالدن .

جمع الكلب والكلبة أبناءهما مرة أخرى . قال الكلب الأب :

ـــ ياصغاري ! لقد كبرتم واكتملتم ، وصار كل منكم كلباً حسناً ، نحن على حافة الموت ، نحن مسروران منكم ، تعبنا لم يضع فيكم . سامحناكم .. الله يرضى عليكم .

* * *

قال (أبو وأمُّ) البقر ، البوفالو ، السمك الخماسي ، الجمل ، الفيل ، الأفاعي ، الغنم .. وكم في العالم من أزواج من الكائنات ، لأبنائهن أن يكن مثلهن وأن يعملن كما يعملن .

تطلعت صغار هذه الحيوانات إلى آبائهن وأمهاتهن وسلكن سلوكهن حتى صرن حيوانات جيدة ، ثم ، وكلما اقترب زوج منها من الموت ، عادا إلى جمع أبنائهما وعبرا لهن عن سعادتهما وسامحاهن ..

* * *

جمع الانسان الأب والانسان الأم أطفالهما حولهما ولقناهم درساً انسانياً . اختتم الأب درسه قائلاً .

ـــ ياصغاري ! اعملوا على أن تكونوا في هذه الحياة بشراً . لا تحيدوا عن درب الانسانية أبداً .

تساءل الأطفال :

ـــ وماذا نعمل حتى نكون بشراً ؟ ماهي طرق التأنسن ؟

قال الأب :

ـــ سهلة جداً . خذونا مثالاً .. اعملوا مثلما نعمل أنا وأمكم .

تطلع الأطفال إلى الانسان الأب والانسان الأم وعملوا مثلما كانا يعملان ، حتى صاروا مشابهين لأبويهم .

جمع الأب والأم أبناءهما حولهما من جديد . صرخ بهم الأب قا ئلاً :

ــ ويلي عليكم ! لم يطلع أحد منكم كما أردنا . لم يصبح أحد منكم انساناً . لقد كنتم ، جميعاً ، بعيدين عن الانسانية . نحن الآن على حافة الموت ، فياضيعان تعبنا فيكم . لاسامحكم الله .. يمحقكم الله !

دهش الأبناء وقالوا :

ــ حسناً لماذا تدعون الله علينا ؟ هل ارتكبنا أي خطأ ؟ نحن تطلعنا إليكما واتخذناكما قدوة .. فعلنا مثلكما تماماً !

الملك الذي يعرف نفسه

كان ياماكان ، في أحد الأزمان ، مكان ، فيه دولة ، كلامها كثير وأفعالها قليلة . كان في تلك الدولة ، مثلما كان في كل الأزمنة الغابرة ، ملك . شعب تلك الدولة لم يكن يحب الملك .. ليس الشعب وحده ؛ بل حتى أولئك المقيمون في القصر من رجال الملك ، كانوا لايحبونه . في الحقيقة كان ملكاً لايُطاق .

كان الجميع في المقابل يحبون ولي العهد . لقد حاز ولي العهد الشاب على محبة كل الناس ، الكبير والصغير ، يحبونه من صميم قلوبهم . كانوا يحبونه إلى درجة أنه لو طلب منهم الموت لأباحوا له أرواحهم دون تردد . لم تكن تلك المحبة من لاشيء ، فلقد كان ولي العهد محباً لوطنه . كان يزهق أحياناً من وطأة هيمنة الملك كلما توفر له وقت ، ويقفُ أمام الأراضي البور ، ويسكب دمعه ويناجي نفسه قائلاً : «آه .. ياكبدي ياوطني .. هل ستبقى هذه الأراضي هكذا ؟» ، يرى المستنقعات فيفكر بينه وبين نفسه : «يمكن أن تتحول الى جنة ...لو أن هذه المياه تجر لتروي التربة المشققة .. ثم لايبقى مرض !»

الصحفيون أحبوا ولي العهد كثيراً . فهو كان يغضب من الضغوط التي كان يمارسها عليهم الملك . كان يقول للصحفيين :

ـــ عندما لاتكون حرية صحافة في بلد ما ، لن تكون ديمقراطية !..

كان يحب الصحفيين أكثر من الجميع ، يحادثهم كثيراً ، يتبادل معهم الهموم ، ويفرغ مابداخله أمامهم .

آمن الصحفيون بأنهم إذا ماأسقطوا الملك يوماً ، وتوَّجوا ولي عهده هذا مكانه ، ستولد حرية النشر ، لذلك كانوا لايفارقونه .. وكان وليّ العهد يولم للصحفيين الولائم وتلتقط له الصور بينهم ، ويكتب على الوجه الآخر من الصور «ذكرى أيام الصداقة الحميمة» ، ويوقع عليها .

الفنانون أيضاً أحبوا ولي العهد المؤمن بحرية الفكر والكلمة .

وكان ذوو الدخل المحدود والعمال يقدرونه عالياً ، إيماناً منهم بأنهم لن يعانوا من شظف العيش إذا صار هو ملكاً ، وكان حب الموظفين له كبيراً .. القرويون كانوا يرفعونه على الراحات لأنه صرح بأنه سيحول هذا الوطن الى جنة .

لم يوفر الملك تصرفاً مع ولي العهد عندما عرف أن الشعب يحبه كثيراً . منعه من أن يكلم الشعب .. ولكي يسكت ولي العهد ويخدره أغلق عليه الباب في أحد أجنحة القصر ، وقدم له كل ماقد يخطر ببال من ذهب ومال وفتيات حسناوات .. لكن ولي العهد الذي كان يتحرق على أن يكون نافعاً لوطنه وشعبه لم ينخدع بأي من هذا .. هدده الملك بالتصفية مراراً .

كان الذين يعيشون في القصر من الأعوان يكرهون الملك ، كانوا كلهم في صف ولي العهد ، فراحوا ينقلون رسائل وأخبار ولي العهد المُرتج عليه الباب في القصر إلى الصحفيين .

وفي يوم من الأيام ثار الشعب الذي ماعاد يحتمل سيطرة الملك بقيادة المثقفين وأسقطوه ، وتوجوا ولي العهد ملكاً .. ومن شدة فرح الشعب أقيمت الأعراس والاحتفالات .

توجه رجال القصر الذين كان لهم دور كبير في إسقاط الملك ؛ توجهوا لتهنئة الملك . تفحصهم الملك الجديد الجالس على العرش واحداً واحداً .. ثم سألهم :

ــ من تكونون ؟

ذهل رجال القصر . كل هذا الذي فعلوه ، فعلوه من أجل أن يتوجوه ملكاً ، فكيف لايعرفهم الآن ، كيف ؟

حاول أحدهم تعريفه بنفسه :

ــ يامولانا .. عندما كان الباب موصوداً عليكم في أحد أجنحة القصر ، كنت أنا أغامر بحياتي كي أوصل رسائلكم للصحفيين .

فكر الملك ، فكر .. ثم قال :

ــ لاأذكر شيئاً من هذا القبيل .. متى حصل هذا الذي تحكون عنه ؟ إنني أراكم الآن للمرة الأولى .

انبرى آخر :

ــ أما أنا فستذكرني .. كنت أتسلل إليكم في منتصف الليل سراً ، وكنا نخطط

لاسقاط الملك حتى انبلاج الصباح ، وكنت أنا أعمل على تنفيذ تلك الخطط .

قال الملك :

ــ لابد أنكم قد رأيتم مناماً .. أنا لاأعرف شيئاً عن هذا الذي تقولونه .

بالرغم من كل محاولاتهم لم يستطع رجال القصر تعريف الملك بأنفسهم ..وفي اليوم التالي جاء الصحفيون لتهنئة الملك . لم يعرف الملك الصحفيين أيضاً . تفحصهم واحداً واحداً من فروقهم حتى أقدامهم قال :

ــ لاأعرفكم .. لم أركم قط .

ــ كيف ؟ رحماك يامولانا . كنتم تخاطبونني (ياخيّ) .. كنا نتمشى معاً وكنتم توكئون ذراعكم على رقبي ، وعندما تصادفونني في أي مكان كنتم تحضنونني وتبوسونني .. حتى إنكم كنتم تبكون وتقولون (آه ياحرية .. آيا حرية ..) .

ــ من ؟.. أنا ؟

ــ نعم ، أنتم .

ــ متى ؟

ــ قبل أن تصيروا ملكاً ببضعة أيام .

ــ أين ؟

ــ في كل مكان .

ــ أبداً .. احذر أن تكون قد شبهتني لشخص آخر .

أبرز صحفي آخر للملك صورتهما معاً وعلى قفاها كتابة بخط يده وبتوقيعه عندما كان ولياً للعهد.. وهو الآخر لم يتعرفه الملك .

أخذوا الملك ونزهوه معتقدين أنه قد أضاع ذاكرته من شدة الفرح . أخذوه إلى حيث الأراضي والمستنقعات التي كان يقول إنه سيحيلها إلى رياض . فرك الملك عينيه براحتيه ، نظر ، دقق ، سأل :

ــ أين نحن الآن ؟

ــ كنتم تنوون تحويل هذه المستنقات إلى بحيرات ليصطاد الناس منها سمكاً ، وليتراكض السياح إليها .

تطلع الملك ،، فحص ، دقق النظر ، قال :

ــ إنني أرى هذه الأماكن للمرة الأولى الآن .. ماأوسخها ! لم يذكر الملك أي حادثة تعود

إلى زمن ولايته العهد ، ولم يتبين أياً من أصدقائه القدامى . دهشوا كثيراً . قال أحدهم :

ــ لعل الملك قد فقد ذاكرته .. تعالوا نر ما إذا كان سيعرف نفسه !

جاؤوا بمرآة بطول رجل ذات إطار ذهبي ووضعوها مقابل الملك . نظر الملك إلى خياله في المرآة . لم يعرف نفسه . سألهم :

ــ من هذا ؟

ــ هذا أنتم .

قال الملك :

ــ هذا ليس أنا .. تعالوا انظروا إذا شئتم . هل هذا أنا؟ نظر الذين كانوا برفقة الملك إلى خيال الملك في المرآة .. ذهلوا . قالوا :

ــ جلالة الملك على حق في عدم معرفته نفسه .

كان خيال الملك في المرآة شيئاً غريباً حقاً . مخلوق له أذنا حمار طويلتان ، وقرنا جاموس وعينا بوفالو .. شعر قرد وغلاظة دب أونف خنزير وشدق كركدن .

وافق الحاضرون الملك . خرجوا من هناك ليخططوا لاسقاط الملك ، وليتوّجوا مكانه ولي العهد الجديد المغلق عليه الباب في أحد أجنحة القصر .

* * *

[نزلت تفاحة من السماء : نصفها لي ونصفها الآخر لي .. وهذا لك .. وهذا لك[١] .. هم نالوا مرادهم ، ووقعنا نحن في الخفيسة][٢] .

---

(١) يرافقها عاداً إشارة بذيئة بالاصبع الوسطى . المترجم .

(٢) شكل من أشكال (القفلة) للحكاية الشعبية التركية ــ المترجم

السيدة قردة

كان في القفص أكثر من عشرة قرود ، وكن يقمن بحركات على العصي العرضانية ، تشبه الحركات التي يؤديها لاعب الجمباز على (الترابس) . كانت إحداها تجلس مطرقة وكأنها تمثال (المفكر) لرودان . لم أستطع تمييز القرد الكبير هذا عن الشمبانزي . تبادلت معه النظر مدة طويلة :

ــ هل تسمحون ؟

كنت سائرة بمحاذاة القفص ، ولأمر ماعدت .

ــ أقول لكم ، ياسيدي .. هل تسمعونني دقيقة ؟

كان المتكلم هو القرد الذي كان قبل لحظة صافناً .

ــ هل أنتم من تكلم ؟

ــ دخيلك ، بهدوء .. لئلا يسمعنا مربي القرود فيمنعني من الكلام .

ــ لكنكم تحكون كالبشر .

ــ طبيعي .. فأنا بشر .

ــ كيف ؟ هل أنتم بشر ؟ مادام الأمر كذلك ، ماذا تعملون في القفص ؟

ــ لست أول بشري يدخل القفص ياه .. البعض يتزوج فيدخل القفص .. والبعض الآخر يدخل في قفص جدول الراتب .... ألم تدخلوا القفص قط ؟

ــ لاتنظري إليَّ .. فأنا كاتب ، وساخر .. وعندما نصل إليها ، فسيقولون لي (حتى

السبع بدخل القفص) ويزقونني في السجن .

ــ السيد كاتب ساخر ؟ لي عندكم رجاء .

ــ تفضل ياسيد قرد .

ــ أنا لست سيداً .. أنا سيدة .

ــ إني أسمعك ياسيدة قردة ..

ــ قلت لك إني لست قردة .. أنا بشر .

ــ وما عملك هنا ؟ لم أفهم ..

ــ هذا ماسأحكيه لك : أنا أحب السينما كثيراً . كنت في يوم من الأيام معجبة بجريتا جاربو . بدأت بحياة عجيبة ، مثلها . تركت شعري ملخبطاً على كتفي . لو رأيتموني في تلك الفترة ! بعدها جذبتني مارلينا ديترش ، فرققت حاجبي بالملقط ، وتشبهت بها . دهنت وجهي ببودرة بصفرة السل مثل مارلينا ديترش ، وصرت أشد خديّ إلى الداخل ، مثلها تماماً ، ثم ظهرت زراه ليونارد ، فرحت أقلدها ، أسرح شعري مثلها ، وأغني بصوت مخنوق مثلها

ــ أرجوك سيدتي .. لماذا أتيتم إلى هنا ؟

ــ هاإني أحكي لك . بعد زراه ليونارد ، تشبهت بكلارابو .. صبغت شعري بالأسود الغامق ، وتحزمت بالكورصة حتى أرقق خصري ، وعملت حاجبيَّ رفيعين للغاية . ولما ماتت جين هارلو ــ مع الأسف ــ بحادث طائرة ، أصبحت فيرونيكا ليك موديلي المفضل . صار شعري يغطي إحدى عيني ، مثل فيرونيكا تماماً ، وصرت أطلي شفتيَّ الكبيرتين المكتنزتين بالأحمر الغامق ، مثلها .

ــ أرجوك سيدتي ، ما الذي تريدينه مني ؟

ــ لو تستمعون إليَّ خمس دقائق فستعرفون ماأريد . مرت موضة فيرونيكا بسرعة .. لمعت إليزابت تايلور ، فأخذت أصبغ نفسي مثلها . عملت شعري خصلاً خصلاً ، مثلها ، فصار من يراني يقول (إليزابيت محلية !) ... لكن ، عندما تزوجت ريتاهايوراث من آغا خان ، صبغت شعري بالأحمر ، ورسمت على وجهي شامات ، مثلها بالضبط . ولما تزايدت سرعة مارلين مونرو بالظهور ، بدلت هيئة وجهي وجسمي على موديلها فصار من يراني يقول (مارلين مونرو ــ نا) .

ــ عن إذنكم .. أنا مستعجل ، عندي شغل .

ــ قصتي على وشك أن تنتهي . ألا تريدون أن تقدموا معروفاً ؟

ـــ بسرعة لو سمحتم .

ـــ لو أنكم شاهدتموني أيام ظهرت أوردي هيبورن . كل شيء فيَّ أصبح كأوردي ، من شعري القصير كشعر الرجال ، حتى .. كل شيء . لكن جينا لولو بريجدا غيرت كل شيء .

ـــ فهمت أصبح تشبهين جينا ، ثم قلدت صوفيا لورين .

ـــ صح . كيف عرفتم ؟ مثلما قلتم . وفي الآخر شبهت نفسي بجريس كيلي . صرت أصبغ نفسي على طرازها ، وأرتدي قبعاتِ ثقيلة كما كانت تفعل .. ومشت حياتي على هذا النحو حتى قبض عليّ .

ـــ ماذا قلتم ؟ حتى قبض عليكم ؟

ـــ نعم . في يوم كنت ماشية في الشارع ، قبضوا عليَّ وجاؤوا بي إلى هنا . صحت (أنا بشر) ، لكنهم لم يسمعوني .

ـــ لو أنكم راجعتم المحكمة .

ـــ راجعتها ، فأرسلوني إلى خبير معتمد . الخبراء المعتمدون قدموا تقريرهم على أني قردة . والآن ، رجائي : من هي آخر نجمة سينمائية مشهورة ؟ وكيف تلبس ؟ وكيف تضع الماكياج ؟ كيف شعرها ؟ كيف تقف ؟ كيف تحكي ؟

وهنا مر مربي القرود وصاح بالقردة التي كانت تحادثني :

ـــ أمن جديد ؟أمن جديد؟ أما زلت تقولين لهذا ولذاك إنك لست قردة ؟

وأخذ يضرب الحيوان المسكين بعصا كانت بيده .أمسكت مربي الحيوانات من يده وقلت له :

ـــ ماتفعله مخالف للقانون . كيف تضرب انساناً ؟

قال مربي الحيوانات :

ـــ ياسيدي ! وهل صدقتم كلام هذه القردة ؟ أرجوكم انظروا إلى هذا الوجه .. انظروا إلى تفاصيل وجهها ، هل فيها شيء لا يشبه القردة ؟ أليس هذا وجه قردة الخالق الناطق ؟ وهل بقيت بينهاوبين الانسانية صلة ؟

نظرت في المراة التي في القفص بتمعن . لقد كان مربي الحيوانات على حق.قلت :

ـــ نعم . إنها قردة .

ـــ طبعاً قردة . لقد عاينها كل الأساتذة والأطباء والبيطريون وقدموا تقاريرهم على أنها قردة .

وبينما كنت أبتعد كانت السيدة قردة تردد :
ــ آه .. شهرة أية نجمة سطعت الآن ؟ أرجوكم ..

كانت ترددها بتوسل .

الحمار الحائز على الوسام

كان في قديم الزمان .. بلد ، الغربال في التبن ، والجمل دلّال ، والجربوع حلاق ، وأنا تِنْغِرْ تِنْغِرْ ، في حضن أمي أهتز ، وبكري المصطفى شيخ الإسلام ، والجاويش أنجيلي قائد عام ، وكركوز رئيس وزراء ، وكان سلطان . البلاد التي كانت تحت نفوذ هذا السلطان أشرقت شمس الحرية عليها ، واخضوضرت شجرة الديمقراطية في تربتها .. الخير كثير والراحة أكثر ، سكانها لاهمَّ لهم ولا غم .

راحت أيام جاءت أيام ، حل فيها — وقاكم الله — قحط لا يوصف . الذين كانوا يأكلون الكثير واللذيذ أصبحوا محرومين حتى من كسرة الخبز اليابس .

وجد السلطان أن المجاعة ستفتك بالرعية فبحث عن طريق للخلاص . أطلق المنادين في أنحاء البلاد ، داروها بلدة بلدة ، قرية قرية ، حارة حارة . كان القرار الذي نادى به هكذا :

— ياأهالي البلد!.. الحاضر يعلم الغايب! كل من قدم خدمة للسلطنة أو نفعاً للوطن ، فليسرع إلى القصر ليقدم له مولانا السلطان وساماً .

نسي الناس جوعهم ، حرمانهم ، همومهم ، ديونهم ، مصاريفهم .. وهرعوا إلى السلطان هائمين بأوسمته . . . فلكل وسام حسب حجم خدماته .. وسام المرتبة الأولى مطلي بالذهب ، وسام المرتبة الثانية بماء الذهب ، وسام المرتبة الثالثة بالفضة ، وسام المرتبة الرابعة بالقصدير ، وسام المرتبة الخامسة مصنوع من التوتياء ، ووسام المرتبة السادسة من الحديد ، ووسام المرتبة السابعة من التنك .. فهي أنواع .. الذاهب يحصل على وسام والآيب يحصل على وسام .

وبقي الحال على هذا حتى إنه ، من فرط صنع الأوسمة ، لم يبق في بلاد السلطان ذاك شيء من خردة حديد أو توتياء أو تنك . وكيف إن (الجُنْجُل) المعلق في رقبة البغل يصدر باهتزازه صوتاً (شِنْغِرْ شِنْغِرْ) هكذا أخذت الأوسمة تهتز على الصدور المنفوخة كالمنافيخ .

سمعت البقرة أن الأوسمة ، شنغر شنغر ، تقرقع على صدور الناس ، وأن السلطان يمنح قاصديه أوسمة ، ففكرت :

ــ «الوسام في الواقع من حقي أنا!» .

ووضعت في ذهنها فكرة الحصول على الوسام .

وبالرغم من كون عمودها الفقري وقفصها الصدري نابقين ، وأنها تطب على الأرض كمن يزحف زحفاً ، فقد حضرت إلى باب القصر ركضاً . قالت لرئيس البوابين :

ــ أخبروا السلطان بأن البقرة تريد مقابلته .

أرادوا صرفها فأخذت تخور :

ــ لا أخطو خطوة واحدة من أمام هذا الباب قبل أن أواجه السلطان!

أرسلوا للسلطان :

ــ مولانا . بقرة من رعيتكم تسأل المثول بين أيديكم .

فاستدعاها :

ــ لتأت لنرى بأية حال هي هذه البقرة!

قال السلطان :

ــ خوري لنرى ما ستخورين به .

قالت البقرة :

ــ مولاي . سمعت بأنك توزع أوسمة ، أريد وساماً .

فصرخ السلطان :

ــ بأي حق ؟ ماذا قدمت؟ ما نفعك للوطن حتى نعطيك وساماً؟

قالت البقرة :

ــ إذا لم أُعْطَ أنا وساماً ، فمن يعطاه؟ ماذا أقدم للانسان بعد كل هذا؟ تأكلون لحمي وتشربون حليبي وتلبسون جلدي . حتى إنكم لاتتركون روثي ، بل تستعملونه . فمن أجل وسام من التنك ماذا أعمل أيضاً؟

وجد السلطان الحق في طلب البقرة فأعطاها وساماً من المرتبة الثانية . علقت البقرة الوسام في رقبتها . وبينما هي عائدة من القصر ، ترقص فرحاً ، التقت بالبغل :

ـــ مرحباً يا أختي البقرة!

ـــ مرحباً ياأخي البغل!

ـــ ما كل هذا الانشراح؟ من أين أنت قادمة؟

شرحت البقرة كل شيء بالتفصيل . وإذ قالت إنها أخذت وساماً من السلطان ، هاج البغل ، وبهياجه ، وبنعاله الأربعة ، ذهب إلى قصر السلطان :

ـــ سأواجه مولانا السلطان!

ـــ ممنوع .

إلّا أنه ، وبعناده الموروث عن أبيه ، حرن وتعاطى على قائمتيها الخلفيتين . أبى التراجع عن باب القصر . نقلوا الصورة إلى السلطان فقال :

ـــ البغل أيضاً من رعيتي فيأت لنرى .

مثل البغل بين يديه ، أخذ سلاماً بغلياً ، قبّل اليد والثوب ، ثم قال أنه يريد وساماً . فسأله السلطان :

ـــ ما الذي قدمته حتى تحصل على الوسام؟

ـــ آ .. يامولاي .. ومن قدم أكثر مما قدمت؟ ألستُ من يحمل مدافعكم وبنادقكم على ظهره أيام الحرب؟ ألست من يُركب أطفالكم وعيالكم على ظهره أيام السلم؟ لولاي ما استطعتم فعل شيء .

أصدر السلطان ، إذ رأى البغل على حق ، قراراً :

ـــ ليُعْطَ مواطني البغل وساماً من المرتبة الأولى!

وبينما كان البغل عائداً من القصر بنعاله الأربعة ، وهو في حالة فرح قصوى ، التقى بالحمار . قال الحمار :

ـــ مرحباً يا ابن الأخ .

قال البغل :

ـــ مرحباً أيها العم .

ـــ من أين أنت قادم ، وإلى أين ذاهب؟

حكى له البغل حكايته . قال الحمار :

ـــ ما دام الأمر هكذا سأذهب أنا الآخر إلى سلطاننا وآخذ وساماً!

وركض بنعاله الأربعة إلى القصر . صاح حراس القصر : داه . جي .. لكنهم لم يستطيعوا

صده بشكل من الأشكال ، فذهبوا إلى السلطان :

ــ مواطنكم الحمار يريد المثول بين أيديكم . هلّا تفضلتم بقبوله أيها السلطان؟

قال السلطان :

ــ ماذا تبغي يا مواطننا الحمار؟

فأخبر الحمار السلطان برغبته . فقال السلطان وقد وصلت روحه إلى أنفه :

ــ البقرة تنفع الوطن والرعية بلحمها وحليبها وجلدها وروثها ، وإذا قلت البغل ، فإنه يحمل الأحمال على ظهره في الحرب وفي السلم ، ومن ثم فهو ينفع وطنه .. فيا حمار ، ماذا قدمت أنت حتى تأتي بحمرنتك وتمثل أمامي ، دون حياء ، وتطلب وساماً؟ .. ما هذا الخلط الذي تخلطه؟

فقال الحمار وهو يتصدر مسروراً :

ــ رحماك مولاي السلطان . إن أعظم الخدمات هي تلك التي تقدم إليكم من رعاياكم الحمير . فلو لم يكن الألوف من الحمير مثلي بين رعيتكم ، أفكنتم تستطيعون الجلوس على العرش؟ هل كانت استمرت سلطنتكم؟ احمد ربك على كون رعيتكم حميراً مثلي تماماً ، ومن ثم على استمرار سلطنتكم .

أيقن السلطان أن الحمار الذي أمامه لن يرضى بوسام من التنك كغيره ، فقال :

ــ ايه ، يا مواطني الحمار . ليس عندي وسام يليق بخدماتكم الجليلة ، لذا آمر بأن يُقَدَّمَ لك عدل من التبن يومياً من إسطبل القصر . كُلْ . كُلْ حتى تستمر سلطنتي .

وصية المرحوم

لقاسم أفندي تصرفات غريبة . في قلب قاسم أفندي مكان واسع لحب الحيوان . في بيته قطيع من القطط والكلاب . فَتُّ الخبز للحمام كان من أكثر الأعمال التي يقوم بها بهجة . لم يذق اللحم في حياته قط . كان يربي في حديقته كل أنواع الطيور الأليف .. لكنه كان يحب الكلب (قرة باش) أكثر من الكل .. كان متفاهماً مع كلبه الذي بلغ الرابعة عشرة من عمره .. دون كلام يتبادلان الأفراح والأحزان . لم تكن له عائلة أو ولد .

أمضى مع قرة باش أربعة عشر عاماً ، وعندما مات قرة باش ، بعد مرض دام يومين ، حزن قاسم أفندي كثيراً ، لم يبق عنده ما يسلي همومه .. بكى عند رأسه أربعاً وعشرين ساعة .

يوم أتى به إلى بيته كان بحجم قبضة اليد . أخذ يعطيه الحليب على اصبعيه كما لو أنها رَضّاعة .. ولما صار قرة باش كبيراً ككبش ، لاح حيواناً جميلاً متفهماً وهادئاً أكثر من أي انسان .

أراد قاسم أفندي أن يقدم لقرة باش آخر واجبات المحبة .. غسلَ الحيوان وسط الدموع بالماء الساخن والصابون كما لو أنه انسان . ثم انتقل إلى حارة لايعرفه أحد فيها ، وأعلن للجيران والمختار وإمام المسجد أن ابنه قد توفي . حملوا قرة باش في جنازة كبيرة ، ولم يكن قاسم أفندي ليقصر في صرف النقود ، أعطى الكثير منها للمتسولين والدُّعاة والإمام . وُضِعَ التابوت على حجر الصلاة في باحة المسجد .. ولما انتهت الإجراءات حُمل إلى المقبرة .. وهناك وقعت المحذورات كلها .

لعب ذلك الحيوان اللعوب قرة باش آخر ألعابه . إذ بينا كان المشايخ يهدئون روع قاسم أفندي الذي كان يرش المقبرة بدموعه ، وكان المقرئون يقرأون في الجانب الآخر . وما إن حاول اللحادان إنزال التابوت إلى القبر حتى لاحظا شيئاً غريباً . كان قد انسل من ثقب عقدة خشب في جدار التابوت ذيل كلب طوله شبران . اللحادان ، من ذعرهما ، أسقطا التابوت من أيديهما . دهش الجميع . ولكي ينقذ الموقف قال قاسم أفندي :

ـــ كان لولدي ذيل .

لكن أحداً لم يصدق أنه من المحتمل أن يكون لولد ذيل طوله شبران . فتحوا التابوت فوجدوا جثة قرة باش .

وفي الحال وضعوا قاسم أفندي أمام القاضي . سأل القاضي ، الذي كان قد فهم الحكاية من أمام المسجد والآخرين ، قاسم أفندي :

ـــ لماذا تكفنون وتجهزون كلباً كما الانسان؟ أليس هذا مخالفاً للآداب ولأركان ديننا ؟..

قال قاسم أفندي :

ـــ آه ياسيدي القاضي . لو كنتم تعرفون أيَّ حيوان كان قرة باش ، وما مزاياه ، لما كنتم ألقيتم عليَّ باللوم .

ـــ وماذا يمكن أن تكون مزايا كلب حتى تدفنوه في المقبرة ؟

ـــ أولاً : كان صادقاً .. كان يحفظ عملاً جميلاً ، كتقديم عظمة له ، حتى مماته . لم يكن يؤذي أحداً . كان شجاعاً ، كان جميلاً ..

ـــ هذه ليست مسوغات !

بدأ قاسم أفندي الذي ارتبك أمام القاضي يعدد الأعمال الحسنة التي كان يقوم بها هو نفسه ، على أن قرة باش كان يقوم بها .

ـــ كان خَيِّراً ، محسناً .. كان يدفع الزكاة عن أمواله .. كان يدخل البهجة إلى قلوب الفقراء..

ـــ مستحيل !..

ـــ حتى انه أقام في حياته سبيل ماء .. قدم للجامع سجادتين هدية .

صرخ القاضي :

ـــ أأنت مجنون ؟ وهل يستطيع كلب أن يفعل هذا ؟

قال قاسم أفندي الذي أحرجه الموقف :

ـــ كان كلباً ! لكنكم لاتعرفونه على أي حال .. حتى إنه قبل مماته سلمني رسـ

احتد القاضي :

ـــ ولاه ، مجنون ، أوتظن الناس مهابيل مثلك ؟ وهل يوصي كلب ؟

عندئذ قال قاسم أفندي :

ـــ سيدي القاضي . لقد أوصى ... صدقوني . لقد قال لي أن أعطي أمواله للفقراء ..

وأخرج قاسم أفندي كيساً من زناره :

ـــ حتى أنه أوصى بأن تُعطى هذه الليرات الذهبية الخمسمئة لجناب القاضي .

دمعت عينا القاضي ... وقال :

ـــ رحمة الله عليه ... أَكْمِلْ قاسم أفندي أكمل .. لننفذ وصية المرحوم .. ففي ذلك ثواب كبير .

وتر الطنبور

كان في قديم الزمان رجل غني يدعى أحمد بيك ، أمواله أتعبت ألسنة الفقراء..
نقوده وأملاكه حكاية على كل لسان . هذا الغني إحمد بيك لا يشبه الأغنياء الآخرين ، فهو سمح ، كريم ، مضياف ، يساعد العجزة . بقدر ماعنده من أموال بقدر مايأتيه . بقدر ما في البحر من رمل مع آحمد بيك من النقود ، شيء لاينفذ ولايستهلك . له على البوسفور عدة شاليهات ، وفي الطرف الأناضولي من إسطنبول قصور ، في وسط المدينة بيوت ، وفي القريب والبعيد مزارع. الله يعطي أحمد بيك .. يعطيه .

مرة كان أحمد بيك ماشياً ببطء في طريقه إلى مضافته في (شيخ زادة باشي) ووراءه وكيله.. وكمن يطارد بعوضة كان يتلفت يميناً ويساراً على المارة ويرد سلاماتهم ، ويدعو كل من يلتقيه ، يعرفه أو لايعرفه ، إلى تناول الإفطار عنده .

دنا من الخيمة إلى جانب السبيل التي كان الإسكافي محمد آغا المحروم يعمل فيها ، سلم عليه ، سأله عن أحواله . فأخذ الإسكافي العجوز يرد على كل عبارة من العبارات أحمد بيك بعبارة «الله يطيل عمرك ياسيدي» .

ــ ألديك عمل كثير الآن يامحمد آغا ؟

ــ هذه الرقعة التي بيدي وأنتهي .

ــ أنهها لنفطر معاً .

وانتظر أحمد بيك الغني حتى أنهى محمد آغا المحروم الرقعة لنعل العتال الذي كان ينتظر وراء باب الخيمة . أغلق محمد آغا المحروم خيمته ومشوا على الطريق ، كانت المضافة عامرة بالمعزومين على

الافطار ، غرف الضيوف مفروشة بالسُّفر ، وجموع النساء في جناح الحريم ، وقد التف الجميع حول المناسف النحاسية . انطلق المدفع .. افطروا ، كلوا ، اشربوا .. وبعدها صفق أحمد بيك الغني بيديه لوكيله الذي صار بالباب :

ـــ ياوكيل ! أعط محمد آغا ليرتين فضيتين .

ـــ على راسي ياسيدي .

كانت العادة في تلك الأيام أن يعطى لمن يأتي للإفطار عند الأغنياء أجرة الفرس . وضع الوكيل في يد محمد آغا ، عند باب المضافة ، أثناء خروجه ، ليرة فضية ، فدهش محمد آغا المحروم وقال :

ـــ دخيلك يا وكيل أفندي . أذناي تسمعان جيداً . البيك على ما أعتقد لم يقل ليرة واحدة ، قال ليرتين .

أخذ الوكيل الحانق للغاية من يد محمد الليرة الفضية التي أعطاه إياها وقال له :

ـــ واخ ! أيها الجاهل حدودَ نفسه . نال فتكبّر !

وطرده خارج الباب بالضرب والرفس . لوى محمد آغا المحروم رقبته للحظة ، ومضى إلى كوخه .

مساء اليوم التالي توقف أحمد بيك الذي كان في طريقه إلى مضافته يسلم على المارة ويرد سلاماتهم وكأنه يطارد بعوضة ، ووراء وكيله ، توقف قدام خيمة محمد آغا المحروم :

ـــ هيا محمد آغا . تفضل معنا على الإفطار ، لنفطر مما أعطانا الله .

كان محمد آغا سيرفض بسبب (التعفيسة) التي تعرض لها مساء البارحة من الوكيلَ .. لكن أحمد بيك الغني أضاف :

ـــ البارحة لم نقعد ونتحادث ، لايمكن إلّاأن تأتي !..قالها بإصرار .

خرج محمد آغا المحروم وراء أحمد بيك .

أكل وشرب من جديد . ومضى زمن ، وقف محمد آغا يطلب الإذن بالانصراف ، فصفق أحمد بيك بيده ثلاث مرات ، وقال للوكيل :

ـــ يا وكيل . أعط محمد آغا ثلاث ليرات فضية .

وإذ كان محمد آغا المحروم خارجاً من الباب دس الوكيل في يده ، ليس ثلاث ليرات ، ولكن ليرتين . قال محمد آغا المحروم برقبة مائلة :

ـــ يا حضرة الوكيل . خوفي من أكون قد سمعت على نحو خاطىء البارحة جعلني أرهف

السمع جيداً الليلة .. لقد سمعت أحمد بيك يقول ، بوضوح ، أن تعطيني ثلاث ليرات . لماذا لا تنفذون أمر البيك ؟

فقال الوكيل وقد غلى وفار :

انظر إلى السافل ! واخ يا قواد واخ ! نال فتكبر !..وأخذ الليرتين من يد محمد آغا المحروم وطرده بالرفس وضرب الكفوف .

مضى محمد آغا المحروم وقد خانه حظه إلى كوخه .

في المساء التالي حصل ما كان يحصل . أتى أحمد بيك الغني إلى خيمة محمد آغا وعزمه على الإفطار . لم يحبِّ محمد آغا المحروم الذهاب من خوفه من الوكيل ، لكنه ، ومن فرط ما رجاه أحمد بيك ، لم يشأ كسر خاطر هذا الغني الشهم . بعد الإفطار صفق بيده وقال :

ــ أعطه أربع ليرات !

ومن جديد أعطاه الوكيل المبلغ ناقصاً . أراد محمد آغا أن يحصل على الليرات الأخرى فقال للوكيل :

ــ دخيلك ياحضرة الأغا .. لقد فتحت أذني هذا المساء جيداً . أحمد بيك قال : أربع فضيات .

فأخذ الوكيل الليرات الثلاث التي أعطاه إياها ورماه في الشارع .

مساء اليوم الرابع أسرع وراء أحمد بيك عندما دعاه للإفطار كي يشكو الوكيل إليه . أكل وشرب كما في كل موعد إفطار ، وعندما استأذن محمد آغا بالانصراف صفق أحمد بيك بيديه ونادى الوكيل ثم وضع إحدى يديه على كتف محمد آغا المحروم وسحبه إلى غرفة ما فيها أحد ، وقال له :

ــ خلنا نتكلم على انفراد يامحمد آغا !

ــ تفضل ياسيدي .

عندي مال وأملاك بقد العالم . نقود لاتحصى يامحمد آغا . ليس مائة عام ، لكن لو عشت خمسمئة عام آكل وأشرب ، ولو أطعمت وأشربت خمسمة آلاف رجل ، فان نقودي لاتنفد . كل عمل أضع يدي عليه ينجح . أمسك التراب فينقلب ذهباً . في الحقيقة ، لقد ضحك لي حظي كثيراً .. والآن ، لي عندك رجاء ..

ــ لاأستطيع تكليف غيرك بهذه المهمة باعتبارك مكتمل ألدين ، نظيف الطوية . اخرج إلى ماوراء السور في (طوب قابي) ، هنالك ، خلف المقبرة ، جُبّ . اندهْ في فتحة الجب ثلاث مرات قائلاً «ياحظ أحمد بيك الغني» وعندها يخرج لك حظي . سلم عليه واسأله

أن لايعطيني شيئاً البته . ليعط ما سيعطيني إياه للفقراء . ليرتح الآخرون أيضاً . خذ هذه الليرة الذهبية ونفذ ماقلته لك .

خرج محمد آغا المحروم بعدما وضع الليرة الذهبية التي أعطاه إياها أحمد بيك في جيبه وهويردد :

ـ على راسي !

وبعدما خرج ذهب الى جب الحظ الذي دله عليه أحمد بيك الغني . وضع كفيه على فمه كبوق وصرخ :

ـ ياحظ أحمد بيك الغني .. ياحظ أحمد بيك الغني . ياحظ..

فطلع له رجل وسيم عليه فراء سمور ، وفي أصابعه خواتم من الذهب والبلاتين وفصوص من الياقوت والزمرد :

ـ تفضل !أنا حظ أحمد بيك الغني . هل ناديتموني ؟

ـ نعم ياسيدي . لقد أرسلني إليك أحمد بيك الغني . يسلم عليك ويقول لك .. وأخبره بما قال أحمد بيك الغني . ولكن ، قبل أن ينهي كلامه رفع حظ أحمد بيك الغني يده ووصاح :

ـ مستحيل ! ولا بأي شكل من الاشكال . قل لأحمد بيك أن لا يحزن ولايقلق . ما أعطيته له حتى الآن لاشيء . ما سأعطيه إياه سيكون من الآن فصاعداً . سيصبح الواحد بيده ألفاً فليرتحْ ويأكل مع أولاده ويتنزه ويسافر ويمرح..

قال حظ أحمد بيك الغني قوله هذا واختفى .

دهش محمد آغا المحروم وقال لنفسه :

ـ ما هذا ؟ ما هذا كله ؟ فقير مثلي يعمل في الليل والنهار ولا يرى ثلاثة قروش مجتمعة ولا يولف الرأسين معاً .. وفي المقابل غني بقد الدنيا يقول «كفى ، لاأريد أي مزيد» فيعاند حظه قائلاً : «مستحيل .. بل سأعطيك» ؟

وإذ كان محمد آغا المحروم يفكر هكذا ، أتاه خاطر :

ـ بما أنني تعرفت على هذا المكان ، وأتيت إلى فوهة جب الحظ .. فلأناد حظي ، ولأتوسل إليه وأتحرق ، عله يضحك لي .

ووضع فمه في فتحة الجب وصاح :

ـ ياحظ محمد آغا المحروم .

ثلاث مرات . سمع صوتاً يأتي من قعر الجب يقول :

ــ دُدُدُدُمْ ..لاأعطي .. دددم .. لاأعطي .. لاأعطي .. دُمْ .. لا .. دُدُمُ .. **لاأعطي** .

وخرج له رجل بيده طنبور . أي رجل ذلك الرجل ! طوله شبران في ظهره حدبة ضخمة ، أعرج ، أعور ، أكتع ، قبيح ، لاهيئة له ، وسخ ، مقلوب الخلقة .. وأخذ يحجل ويدور حول محمد آغا ويعزف على طنبوره ويغني :

-دُدُدُدُم .. لاأعطي ..دم .. ددددم .. ماذا ؟ هل ناديتني ؟

ــ أنا محمد آغا المحروم .. من أنت ؟

ــ أنا حظك الأعور . ناديتنا فأتيتنا .. ددددم لاأعطي .. دم لا أعطي .. دم .. ددد دم لا أعطي دم لا أعطي ..

فأخذ محمد آغا المحروم يستعطف حظه :

-ياحظي الأعور ! ياحظي الأفصع ! انظر ... ها أنتذا ترى حالي . عمري سبعون عاماً ، شغلي واقف . بلحيتي البيضاء أهيم بلا وجهة . اشتغلت عمري كله بلا كلل ، ليلاً نهاراً ، فماذا جنيت ؟ لم أضحك يوماً ، ولم أولف الرأسين معاً مرة واحدة .. هيه . أحب حدبتك ياحظي الأعور ياحظي الأقرع ، ياحظي الأجقم .. أتوسل إليك ، لم يبق من عمري سوى القليل .. أرجوك أضحك لي . اضحك لأرتاح في الأيام القلائل التي أُعتبرُ فيها ضيفاً على الحياة .

فقال حظ محمد آغاالمحروم :

ــ ولاه واطي ؟ انك تتدلل لأنك أخذت ليرة ذهبية .. رفعتَ الكلفة ؟ أهكذا إذن ؟ ددددم لا أعطي .. دُمْ .. لا أعطي ددددم لا أعطي .. كنت أستطيع منعك من أخذ الليرة الذهبية ، لكن احمد ربك ، كنتُ أثناء ذلك أصلح وتر الطنبور ، ولولا ذلك ، في حياتك كلها ، يستحيل أن ترى ليرة ذهبية . أفهمت أيها الأهبل المسكين ؟!

واستمر حظ محمد آغا يعزف على طنبوره ويفتل حوله ويغني :

ــ دم لا أعطي دم .. لا أعطي ..

ثم غاب .

انحنى محمد آغا على فوهة الجب وتوسل عله بتوسله يلين قلبه حظه الحجري .. و .. طُبْ ! سقطت الليرة الذهبية التي في زناره في الجب .. بينما كان قعر الجب يردد صدى قهقهة :

ــ ددددم .. لا أعطي .. ها ها ها .. لا أعطي .. دم ...

قصة البرطمة

كان ياماكان في إحدى الدول ، امرأة ورجل ، بقدر ما كانا ثريين ، كانا بخيلين . في بيت كالقصر ، لايعيش معهما سوى خادم بخيل مثلهما .

ولأن هذا الخادم كان خادماً خالصاً ، غير مزاد بقطرة ماء واحدة ، فقد كان ينفذ ما يتفضل به سيده وسيدته من أوامر ، دون أن يفكر في مدى صحته .

وفي يوم قال السيد للخادم :

ــ اذهب إلى البازار واشتر لي طاساً من العسل ...

ولأنه كان خادماً بنسبة مائة بالمائة ، صافياً ، ما عنده تدبير ذاتي ، فقد انحنى حتى لامس الأرض قائلاً :

ــ على راسي ياسيدي .

وركض إلى البازار مسرعاً .

ولكي يوفر على سيده الثري ، فقد بحث عن طريقة لخوزقة البائعين المساكين الفقراء . ساوم بحدة ، وفي النهاية اشترى طاس عسل كبيراً ، بسعر لايجاري في انخفاضه ، من بائع عجوز لم يستفتح في ذلك اليوم . كان البائع العجوز مرغماً على بيع العسل للخادم بأقل من رأسماله ، كي يحصل على بضعة قروش .

وبينما كان في طريقه إلى البيت ، فرحاً بكونه خادماً غير مضاف قطرة ماء واحدة ، وما عنده تدبير ذاتي ، وقد خوزق بائع العسل المسكين ، وأربح سيده .. صادف امرأة مسكينة

ممزقة الثياب . أخذت المرأة تتوسل إليه :

أعطني لحسة عسل من الطاسة التي بيدك . ولدي مريض ، والأطباء أكدوا لي أنه إذا لم يتناول ملعقة من العسل فسيموت .

وبما أنه كان خادماً غير مشوب بشيء آخر ، وما عنده تدبير ذاتي ، فقد مد لها لسانه ، وقال هازئاً :

ــ برط برط !

فقالت المرأة المحروق فؤادها على ابنها المريض :

ــ رُحْ ، ليصبح لسان كل من سيتذوق عسل هذا الطاس ، من السادة ، والسادة لأعلى منهم ، ومن خدمهم ، وكافة الخدم ، مثل لسانك .. وليبرطموا !

ضحك الخادم من المرأة وقال :

ــ برط .. برط ...

قبل أن يدخل البيت ، ولكي يتذوق طعم العسل قبل سيديه ، أخذ شيئاً منه بإصبعه ولحسه . ثم وضع طاس العسل أمام سيده وسيدته اللذين كانا جالسين إلى المائدة ينتظرانه :

ــ لعلك لم تشتر العسل غالياً ياه ؟

فأجاب الخادم غير المخلوط بشيء :

ــ لا ، برط ، لم برط ، أشتره برط ، غالياً برط . اشتريته برط ، رخيصاً برط .. جداً برط .

دهش السيد من برطمة خادمه . قال :

ــ ماذا دهاك ؟ .. لماذا تبرطم هكذا ؟

ــ بعد إذ برط ، أخذت برط ، لحسة برط ، عسل برط ، أصبحت برط ، هكذا برط .

تناولت السيدة لحسة من العسل وقالت :

ــ ما به برط ، هذا برط ، العسل برط ؟ إنه برط ، عسل برط ، على برط ما برط يرام برط .

صاح السيد غاضباً :

ــماذا جرى لكما حتى صرتما تبرطمان؟

وأخذ لحسة من العسل وأضاف :

ــ مابه برط ، هذا برط ، العسل برط ؟ إنه عسل برط على برط ما برط يرام برط .

أصبح السيد والسيدة والخادم لايستطيعون التكلم دون أن يضيفوا كلمة (برط) وراء

كل كلمة يقولونها

ـــ هيا برط نأخذه برط إلى رئيس البلدية برط .

ذهبوا إلى رئيس البلدية حاملين العسل . حكوا له مبرطمين ما جرى فقال رئيس البلدية :

ـــ الله الله !

وأخذ منه لحسة ، ثم قال :

ـــ ما به برط هذا برط العسل برط ؟ إنه برط عسل برط على برط ما برط يرام برط .

قالوا :

ـــ لنذهب برط إلى القاضي برط .

وذهبوا إلى القاضي وحكوا له ما جرى لهم أخذ منه لحسة وقال :

ـــ الله الله ! ما برط هذه برط الشغلة برط ؟ إنه برط عسل برط عادي برط . تعالوا برط نأخذ برط هذا البرط عسل برط إلى برط حضرة برط المحافظ برط .

ذهل المحافظ عندما رأى مجموعة من الناس يبرطمون أمامه . أخذ لحسة من العسل ليرى ، ثم قال :

ـإنه برط عسل برط جيد برط

كبرت المسألة كثيراً حتى شملت شيخ الإسلام ، القائد العام للجيش ، الوزراء .. صاروا يتذوقون العسل فيبدؤون بالبرطمة ...

وهكذا حتى وصلوا إلى رئيس الوزراء . قالوا له :

ـــ حلوا برط لنا برط لغز برط هذا برط العسل برط !

تناول رئيس الوزراء لحسة من العسل وراح يبرطم . ذهبوا إلى سيد القوم الملك :

ـــ دخيلكم برط ياسيدنا برط الملك برط .. خذوا برط من برط هذا العسل برط لحسة برط .

أخذ الملك لحسة من العسل وهو مندهش من واقع هذا الحشد من المبرطمين ، ثم بدأ يحكي مضيفاً كلمة برط وراء كل كلمة يقولها :

ـــ أيش برط به العسل برط ؟ إنه برط عسل برط على برط ما برط يرام برط .

ولكي يتوصلوا إلى حل للغز العسل باشروا التحقيق . استمر التحقيق حتى وصل إلى الخادم غير المخلوط الذي ما عنده تدبير ذاتي . وعندما حكى لهم الخادم غير المُزاد بأي ماء الحكاية وهو يبرطم ، بدأوا البحث عن المرأة الفقيرة التي دعت عليهم . قال لها الملك :

ــ أيتها برط المرأة برط . إنني برط آمرك برط بأن برط تنقذينا برط من هذا برط المأزق برط .

حتى يستطيعوا التكلم دون برطمة ، الذين يظنون أنفسهم أسياداً ، وهم سادة لأذلّاء ، وخدم لمهانين ، يجب أن يعطوا عسلاً لمن لايمتلك العسل .. حتى يستطيعوا ذلك ، نظروا ، فلم يجدوا مخرجاً من هذه الورطة ، إلّا باعطاء المرأة المسكينة لحسة عسل لولدها المريض .. أدركوا ذلك جيداً ، أدركوه لكن هل أعطوا المرأة لحسة عسل ؟ كلا . قالوا :

ــ مَنْ برط يملك برط العسل برط يلحس برط إصبعه برط .. أما برط الآخرون برط فليلحسوا برط أكفهم برط . لنبرطم برط هكذا برط أحسن برط من برط أن برط تفسد برط طعمة برط أفواهنا برط .

ومنذ ذلك الوقت ما يزال فريق من الناس يبرطمون . وإذا لم تصدقوا فاستمعوا إلى الخطب . إن السعال ، العطس ، التوقف بين الكلمات ، هي الأشكال الحديثة للبرطمة التي كانت سابقاً .

في الحقيقة إن هذه الخطب يمكن أن تفهم على النحو التالي :

ــ أيها المواطنون برط .. أعطونا برط .. أصواتكم برط .

ــ بررررررررط .

الحمار رئيس وزراء

كان ياماكان في قديم الزمان، في إحدى الدول . الغربال في التبن . وكان ملك . كان عند هذا الملك ، مثله مثل كل الملوك ، كل في زمانه ، من العازفين ومن الراقصات ، مثنى خُماس وعُشار . كان عنده جوار وخليلات .. كان عنده خدم ، ماسحو جوخ . وكذا ومذا .

كان ملك تلك الدولة ، مثله مثل ملوك كل الأزمنة والأمكنة ، يقوم بالأعمال الهامة جداً : حضور مراسم الافتتاح ، استعراض العروض الرسمية ، قراءة الخطب التي يكتبها الغير ، التجوال ، السياحة .. وإذا فرغ فإنه يجد وقتاً يذهب فيه للصيد .

ولأن ملك تلك الدولة المهووس بالصيد كان من النوع الذي يتأثر برطوبة النسيم ، فقد كانت توضع له حيوانات معينة ، مرباة على نحو خاص ، في غابات خاصة .

ينادي الملك كبير المنجمين ويسأله :

ـــ كيف سيكون الطقس اليوم ؟

فيجيبه كبير المنجمين في كل مرة :

ـــ صاحب الجلالة ، مولانا ! بمشيئتكم سيكون طقس دولتنا في النهار مشمساً .. سيكون الطقس يا مولاي مثلما تشاؤون وتأمرون .

لكن الملِك ، مثله مثل كل الملوك ، كان ظنوناً ، لايثق بكبير المنجمين . يسأل رئيس الوزراء :

ـــ كيف سيكون الطقس اليوم ؟

فينحني رئيس الوزراء العجوز المبيّض حتى شعر أذنيه بلحيته الواصلة إلى زناره حتى يصل الأرض ويقول :

ـــ يجب أن يكون رائعاً ، بمشيئتكم ، في مملكتنا وفي خارجها .. الجو السياسي ، والأجواء الأخرى جيدة ماشاء الله !

يسأل الملك الظنون وزراءه عن حالة الطقس فيجيبونه بدورهم :

ـــ الأفق وردي .. السماء صافية .. لاحرمنا الله منكم .. مادمتم موجودين فهل يحدث غير ماتشاؤون ؟

وإذ ذاك يصدق الملك رجال العلم والدولة ومشيئته وقدرته .. يحمِّل أدوات الصيد على ظهور خدم مخصصين لهذه الغاية ، ويخرج . يمشي رجال الدرك في المقدمة ، يليهم الجندرمة كقوات حماية ، وعلى الجانبين حرس ، انتحاريون ، استطلاع ، قوات خاصة ، مدنيون ، رسميون .. وسط كل هؤلاء يذهب الملك لصيد حيوانات خاصة ، مرباة على نحو خاص ، في غابات خاصة ، مُرَافَقَاً بالهتاف والمرح .

راح يوم جاء يوم .. سأل الملك كبير المنجمين ، رئيسَ الوزراء ، الوزراء ، حضرةَ شيخ الاسلام ، رئيس الديوان ، رئيسَ قسم الحرم ، رئيسَ شعبة المراسلات .. سألهم واحداً واحداً ، حسب تسلسل مراتبهم ، عن حالة الطقس في ذلك اليوم . ولما أتاه الجواب :

ـــ بمشيئتكم مولانا سيكون طقس اليوم أروع من طقس البارحة .

خرج .

كانت الطرق التي سيمر منها قد فُتشت قبل شهر من مروره بها ، وكان قد طُرد كل من كان على الطريق من الأهالي .. لكن لاندري كيف أُغفل قرويٌّ مع حماره تحت شجرة .

والملك لم يكن قد رأى قروياً طيلة حياته ، لذلك لم يستطع تمييز هذا الكائن الحافي ذي الثياب الرثة . سأله :

ـــ ماأنت ؟ جماد أم جني ؟

ـــ لاجماد ، ولاجن .. أنا بشر مثلك .

هكذا أجابه .. غضب الملك وصرخ :

ـــ ماهذا الخلط ؟ لايمكن أن تكون كائنات مثلك من جنسي ..اقطعوا رأسه .

رفع كبير الجلادين سيفه فوق القروي ذي الرقبة الأرفع من شعرة لينفذ أمر الملك . وماكاد يُعْمِلُهُ فيها صاح الملك :

ـــ قـ ...ف ! أيها الكائن الذي يشبه كلامه كلامَ البشر إلى حد ما .. سأسألك سؤالاً ، إذا عرفت جوابه فسأعفو عنك : كيف ستكون حالة الطقس اليوم ؟

قال القروي :

ــ بعد قليل ستهب الرياح ، وستعصف العواصف ، وسينهمر المطر .. السيول ستجرف كل شيء .

صرخ الملك الذي بدأ يفور غيظاً من هذا الكلام :

ــ ولاه خاين ! ألا تعرف أنه بدون مشيئتي لايمكن للطقس أن يتبدل ؟ كيف يهطل المطر والملك في الصيد ؟.. اربطوه بذيل البغل .. هيا !

ربطوا حمارَ القروي بذيل البغل ، وربطوا القروي بذيل حماره ، ومشوا على الطريق . لم يقطعوا مدى رصاصة إلّا وكانت السماء قد تلبدت بالغيوم واسودَّت ، وأخذ البرق يقدح والرعد يقصف والصواعق تضرب . هبت عاصفة ونزل مطر . العاصفة كنست كل شيء والسيل جرف كل شيء .

نجا الملك بنفسه بصعوبة وأوى إلى القصر . غضب إلى حد أن أمر بعزل من أعطوه تقرير الطقس على نحو خاطىء : كبير المنجمين ورئيس الوزراء والوزراء . وبَّخ الجميع ، قطع رؤوس البعض . ثم طلب القروي الذي أخبره بأن حالة الطقس ستتردى ليمثل بين يديه .. قدم خاتم رئاسة الوزراء للقروي الذي كان منهكاً يرتجف من البرد وقال :

ــ عينتك رئيسَ وزراء

بعدما صار القروي رئيسَ وزراء لمدة من الزمن تفكَّر الملك بالأمر ثم استدعى رئيس الوزراء القروي فمثل هذا بين يديه . سأله :

ــ كيف عرفت أن المطر سيهطل ؟

ــ أجابه القروي :

ــ تحت أمر مولانا !.. عندما أنظر إلى أذني حماري أعرف كيف ستكون حالة الطقس . أذنا حماري تتهدلان إذا كان المطر سيهطل ، فأعرف أنه سيهطل .

قال الملك في سره :

ــ أية جهالة ؟! هذا يعني أن الحمار هو الذي عرف حالة الطقس ، وليس القروي . كل هؤلاء الوزراء ورئيس الوزراء وغيرهم لايعرفون بمقدار مايعرف الحمار . لقد هضمت حق الحمار المسكين ..ليس القروي مَنْ يجب أن أعينه رئيساً لوزراء .. بل حماره .

وفوراً عزلِ القروي وعين حماره مكانه .

صار إذا نهق الحمار بعذوبة يعرف أن الجو سيكون رائقاً ، وإذا هدلت أذناه سيكون ماطراً ، وإذا لاح بذيله سيكون عاصفاً .

صار الملك يعلن الحرب ، يخرج للنزهة ، السياحة ، الصيد ، بعد أن ينظر إلى أذني

رئيس الوزارء الحمار أو يستمع إلى نهيقه . لم يعد يخرج عن نهيق الحمار أبداً .

حصة الأسد

كان ياماكان ، في قديم الزمان ، الغربال في التبن .. وكان أسدٌ في غابة ، قانونها سائد فيها .. حيوانات الغابة كلها تحت سيطرة ذلك الأسد .. فرض ضريبة على كافة الحيوانات ، من النملة الى الفيل ، والطير والذئاب ، كلها تدفع الضريبة . اسم هذه الضريبة (حصة الأسد) . حيوانات الغابة جميعها تعمل ، تكدح ، تشقى ، يتعرق ماتحت ذيولها ، لتقطع من سيدها أفضل قطعة ، وتقدمها كضريبة (حصة الأسد) . أفضل الإجاص لايأكله الدب ، بل يعطيه للأسد . يقدم الذئب كبد الغزال الذي يصطاده للأسد ، وإذا علق ديك بأنياب ثعلب يصبح الثعلب مضطراً لاعطاء ألذَّ قطعة منه وهي (الزَّوْرُ) للأسد .

يتمطرق الأسد في القصر ، يأكل ويشرب مرتاحاً مسروراً ، وسط الراقصين والمنافقين من القرود ، والحكماء والعلماء من الببغاوات ، والمطربين من الغربان . أحياناً يخرج ، ليقوم بعمل من جهة ، وليهيب رعيته من جهة أخرى ، فيستعرض جسمه ، يلوح بذيله يلعق شاربيه ؛ يزأر مرة أو مرتين ، ثم يعود إلى القصر ليغوص في ملذاته .

وخوفاً من أن تضع الحيوانات عقولها في رؤوسها وتثور يوماً ما ، ومن قبيل الحيطة ، وضع الأسد في قصره كلاباً للحراسة . ولأن ما كان يأخذه من الحيوانات كضريبة (حصة الأسد) كان كثيراً جداً ، فقد كان يرمي فضلاته للكلاب الحارسة القصر .

راح يوم جاء يوم .. اندلعت في احدى الغابات المجاورة ثورة . الحمامات جلبن الخبر بأجنحتهن .. إذ ذاك أيقنت الحيوانات أن الأسد على باطل . رفعت البلابل أصواتها أولاً :

ـــ لماذا نعطي (حصة الأسد) لأسد مُسنّ هفتان ؟

وراحت تزقزق وتتأوه : حق ، عدالة ، حرية ، مساواة !..

سمعت كلاب الأزقة نجاوى البلابل فركضت لكونها مكلفة بهذا العمل ، وأخبرت كلاب الفينو بالأمر . نبحت كلاب الفينو منادية الكلاب الذئبية الأضخم منها ، الكلاب الذئبية لرؤسائها من كلاب الرعاة .. دواليك حتى وصل الخبر إلى الأسد حاكم الغابة .

تفكر الأسد بالأمر ، ثم اهتدى إلى طريقة تساعده على فرط الموضوع بالحسنى . أصدر أمره إلى كلب صيد من كلابه بأن ينقل للبلابل هذا البلاغ :

ـــ إي ، يارعاياي البلابل .. تسربت ـــ على ماسمعت ـــ أخبار مفسدة من الغابات الأجنبية إلى غابتنا التي تعيش في هناء ، هدفها أن تزعزع الوحدة والتلاحم السائدين في غابتنا . وها أنتم أولاء بدأتم تزقزقون (حرية) . يارعايا البلابل ذوات الأصوات الجميلة، حطوا عقولكم في رؤوسكم !... لماذا تثرثرون وتحرضون حيوانات الغابة وتعملون على إثارة الفتنة بدلاً من أن تزقزقوا وتغردوا فوق شجيرات الورد ؟ تعالوا جميعاً إلى القصر !.. سَلّوني بأغانيكم العذبة ! ذلكم هو الفن !.. وأنا أعطيكم من حصة الأسد مايشبعكم .... وإذا كان بينكم محبون للحرية لايفضلون المجيء الى القصر فليثرثروا بقدر ما يشاؤون للورود ، وأنا أرضيهم من (النفقات المستورة) .. أما إذا كان بينكم من يصرُّ على ارتكاب خلاف هذا ، فإن العدالة ستأخذ مجراها .. ومخلبي يطالكم جميعاً» !

فور سماع هذا الخبر ركض معظم البلابل الى القصر . وضعها الأسد في أقفاص ذهبية وخصص لها شيئاً من (حصة الأسد) .. وقد بدأت ، كي تسلي سادتها وتفرح قلوبهم ، تمتدحهم وتغرد لهم .

وانقطع الصوت والنفس في الغابة . وبالرغم من كل ماكان يحصل ، بقي بعض بلابل في الغابة ، عاندت وقالت «القفص قفص .. سواء كان ذهبياً أو حديدياً» .. وترنمت :

ـــ ياعذابك أيها البلبل .. ياعذابك !

نقلت الكلاب النبأ إلى الأسد بهز ذيولها ، فانتفض الأسد حانقاً .

ـــ لم يبق عليَّ حق .. بلاء البلابل في ألسنتها .لتقطع ألسنة البلابل التي لم تسكت !

ولدى صدور قانون الغابة الجديد هذا صاروا ، كلما قبضوا على بلبل يتأوه ، قطعوا لسانه . صارت البلابل المقطوعةُ الألسنة تشكو همومها وعذاباتها بإشارات من الأعين والحواجب . منعت إشارات العيون والحواجب ، ثم أصدر الأسد ، بعد أن أيقن أنه لايمكن الوقوف في وجه البلابل المقصوصة الألسنة ، قانون غابة جديداً يقضي بقطع رؤوس المتمردين .

أصبحت الغابة ساكنة ، ساكنة ، لكن ماذا تعمل الكلاب ؟ يجب أن تعمل حتى

تأخذ من حصة الأسد على حسب العمل الذي تقدمه للملك ، ولتترق وتترفع .

بدأت تجول في الغابة .. لاشيء ، لايمكن سماع همسة ، لكن مع ذلك يجب أن توجد بعض الأشياء . ولكي تعرف ماإذا كان ما يزال ثمة بلابل مخرِّبة ، هدامة ، دارت الكلاب في أرجاء الغابة .. وبعد بحث وتدقيق قام بهما كلب صيد وكلب فينو ، وجدا بلبلاً واقفاً على غصن شجيرة ورد . كان البلبل المسكين لايستطيع أن يغرد أو حتى أن يغمز . كان ، من كبر همه ، يغرس الشوك في صدره فيقطر دمه على الوردة وتنبس من عينيه قطرات ناعمة من الدمع . فكرا بحيلة يغضبان بها البلبل ليجعلاه يتكلم حتى يخبرا الأسد بذلك ويستفيدا .

قال الفينو :

ــ لماذا ياأخي البلبل نعمل ونشقى ثم نطعم الأسد ؟ ماهذا الإجحاف ؟ ماهذا التفريق ؟

لم يبلع البلبل حيلة الكلبين لكن كلب الصيد وكلب الفينو نبحا وبكيا ، فلم يعد البلبل يطيق صبراً فخرجت من فمه كلمة واحدة :

ــ صحيح .

ــ ماذا ؟ صحيح ؟

وركضا بأقصى مايستطيعان . أخبرا الأسد بذلك . قال الأسد :

ــ أمسكوه. من يمسكه أجعله رئيس حرس القصر .

ركض الكلبان إلى البلبل . نبح كلب الصيد قائلاً :

ــ ياأخي البلبل ! إنك تتعب نفسك ولسانك ليلاً نهاراً من أجل توعية إخوتنا الحيوانات في الغابة . واضح أنك مرهق للغاية . نَمْ هنا وارتَحْ ، ونحن نحرسك فلا يستطيع أحد أنْ يلمس منك ريشة .

صدق البلبل المسكين هذا الكلام ، إذ استطاع كلب الصيد التظاهر بالتأثر ، وكان البلبل قد أمضى أياماً دون نوم ، فصدق . أغمض عينيه ، وبمجرد إغماضهما غط في نوم عميق . فهل يقف كلب الفينو ؟ هرررت !.. أمسك البلبل من جناحيه . عرف البلبل أنه وقع في الفخ لكن ماذا تجديه هذه المعرفة بعد أن صار الذي صار ومُسكَ من جناحيه ؟

أخذ كلب الفينو البلبل في فمه وركض ، ركض حتى يصل إلى القصر قبل كلب الصيد وينال المكافأة من الأسد ، لكن هل يقف كلب الصيد الذي كَلِبَ من فرط غيرته ؟ لحق بالفينو ، نصب له شَرَكاً كي يأخذ البلبل من فمه . قال له :

ــ ياأخي الفينو ! تمهل قليلاً حتى نصل كلانا إلى حضرة سيدنا الأسد وننبح معاً

لنأخذ البشارة .

ولما تمهل الفينو انقضَّ كلب الصيد على ذيله . صار جناحا البلبل في فم الفينو ، وذيل الفينو بين أنياب كلب الصيد . فكر البلبل بخدعة ينقذ فيها نفسه من الكلبين . قال :

ـــ ياأخويَّ الكلبين . لقد قبضتما علي .. ومن ذا الذي يعرف ماذا سيقدم لكما سيدنا لقاء هذه الخدمة ؟ تعالا ، بدلاً من الهدية التي سيعطيكما إياها ، نَدْعُ لسيدنا الأسد بطول العمر ونصفقْ له !..

شك الكلبان في الأمر ، لكنهما ، من خوفهما من أن يقال إنهما لم يَدْعُوا لسعادة سيدهما ، ولم يصفقا له ، وفي مثل هذه الحالة قد يشي أحدهما بالآخر .. كانا مضطرين إلى تنفيذ ما اقترحه البلبل .

لكي يصفق كلب الصيد أفلت ذيل الفينو من بين أنيابه .. ولكي يدعو الفينو للملك فتح فمه و .. فرر . طار البلبل وحط على غصن وردة .

وهنا أطلق البلبل ، لأول مرة في حياته ، شتيمة كبيرة . قال :

ـــ الذي يصدق كلام الكلب بعد اليوم فهو ...

ونبح الفينو الذي خسر صيده قائلاً :

ـــ الذي يصدق كلام البلابل فهو .. والذي يدعو فهو ..

شتم كلب الصيد بتعقل قائلاً :

ـــ والذي يصفق لسيده قبل أن يقبض المكافأة فهو ...

في أحد الأزمان

كان ، في أحد الأزمان ، في إحدى الدول ، رئيس . عُرف ذلك الرئيس في تلك الدولة وذلك الزمان بخاصية .. ألا وهي : ملء دولته بالمخبرين . من بين كل ثلاثة مواطنين كان ثمة مخبر محترف ، وأكثر من نصف الباقين كانوا مخبرين مبتدئين . وغير المخبرين المحترفين والمبتدئين ، كان المتطوعون ، ومعظم الذين لم يكونوا مخبرين محترفين أو مبتدئين أو متطوعين ، كانوا من هواة الاستخبار . وقد وجد ذلك الرئيس أن هؤلاء المخبرين غير كافين ، فاستقدم من الدول الأخرى خبراء ومستشارين في الاستخبارات . وبالنظر إلى أن عدد المخبرين كان ضخماً جداً ، فقد كانوا لايكتفون بالإخبار عن الذين ليسوا من المخابرات ، وحتى يؤدوا واجبهم ، ويستحقوا الأجور التي يقبضونها ، ولأنهم لم يعتادوا البطالة . ولأن إخبارهم عن الآخرين لم يكن ليشبع حبهم للعمل ، أو يملأ أوقات فراغهم ، كانوا يخبرون عن بعضهم البعض . وكما تفعل القطط الصغيرة عندما تمسك ذيولها ، كان الواحد من المخبرين يخطو خطوة ويرجع لينظر وراءه شاكاً بوقع خطاه . كثيرون منهم لاحقوا أنفسهم من خلال آثار خطواتهم ، حتى إن البعض من المخبرين مَنْ قبض على جاكيته أو كم بنطلونه في ظلام الليل . كثير منهم من يستيقظ من نومه مذعوراً من صوت شخيره أو من ضراطه ليبلغ عن إطلاق رصاص بندقية أو قذيفة مدفع . ولكون بعضهم قد مُنح جوائز ، تقديراً لاصطدام رؤوسهم بالجدران أثناء ملاحقتهم ظلالهم للقبض عليها .. فقد ارتفع عدد ملاحقي الظلال . وكان أيضاً من أخبر عن خياله في المرآة ، في الماء الراكد ، في السطوح العاكسة .

لم يبق — تقريباً — في تلك الدولة أحد من غير المخبرين ، وهؤلاء الباقون ، الذين عددهم

لايذكر بين كل أولئك المحترفين والمبتدئين والهواة والخبراء والمستشارين ، الأجانب منهم والمحليين ، كانوا يثورون ضد الرئيس . ليس بالمدفع ، ولا بالبندقية ، بالتأكيد ، ولا بالمظاهرات ولا بالاجتماعات ، قطعاً .. طيب بماذا إذن ؟ لقد كان هؤلاء ، القليلون جداً ، الذين ليسوا مخبرين ، يثورون على الرئيس ويعارضونه ، بتأليف نكت ساخرة ومضحكة عن هبله . وقد راجت هذه النكت في المجتمع وأخذت تكثر وتنتشر من لسان الى لسان ، ليس في تلك الدولة فقط ، بل وفي أرجاء العالم كله .. الى درجة أن المخبرين أنفسهم كانوا لايمسكون أنفسهم عن رواية النكات التي يطلقها أعداء الرئيس .

بعض الناس كانوا يحسبون كم يكلف الرئيس على الشعب من أموال ، وذلك بإحصاء عدد النكت التي تحكي عن هبله ، فكان يُحسب مايحصل عليه الرئيس شهرياً ، سنوياً ، أذونات سفره ، مدفوعاته الخاصة ، ثم يقسمون الناتج على عدد النكت ، فينتج (ثمن الرئيس) . ولكي ينخفض ثمن الرئيس كان الشعب يؤلف النكت باستمرار . كانت النكتة الواحدة تكلف كذا مليوناً من الليرات ، وبالرغم من كون الحالة هكذا فقد كان الشعب ممتناً للرئيس ، فإذا كان لم يقدم شيئاً البتة ، فهو نافع من أجل تأليف النكت التي تُضحك الشعب ، فالذين سبقوه لم ينفعوا حتى في هذا .

بعد زمن كثرت النكت التي تحكي عن هبل الرئيس ، حتى إن هذه النكت أخذت تؤتي مالم تؤته الكتابة ، الرسم ، الصياح ، الصراخ ، الاجتماعات ، المسيرات ، التنظيمات السرية ، المعارضة القوية ، الانتفاضات المسلحة . النكت المضحكة الساخرة لم تقتصر على الرئيس ، بل إنها شملت نظام الرئاسة كله ، مثلها مثل الفيروسات الصغيرة التي لاتُرى بالعين ، ومع ذلك تغل في الجسم ، تنهشه ، تخربه .

وفي مثل هذا الوضع لايتوقف المخبرون عن عملهم بالطبع ، ولقد كان سبب عدم اخبارهم عنها في السابق هو قوة النكت وبلاغتها في إظهار هبل الرئيس . فكيف يمكن القول أن الهبل الذي تحكي عنه هذه النكت يمثل سلوك الرئيس ، وأن السخرية فيها تقصد شخص الرئيس ؟ غير أن النكت انتشرت وكثرت يوماً بعد يوم ، بحيث لم يبق مفر من إيصالها للرئيس ، فهذه النكت تسخر من الرئيس على نحو سافر ، ولابد بالتالي من أن يعرف بأنه المقصودُ بها ، فيغضب ، ويطلب معاقبة كل من ساهم في تأليفها بأقسى العقوبات .. حتى إنه قد يمنع روايتها .

جمع المخبرون ذوو المراتب الدنيا القابعون في قاعدة هرم المخابرات النكت من بين الشعب

ورفعوها لمن هم أعلى منهم ، الأعلى منهم رفعوها بدورهم لمن هم أعلى .. دواليك حتى تجمعت النكت كلها عند قائد المخابرات .. تحين قائد المخابرات وقتاً مناسباً ، وفي إحدى الليالي ، في القصر ، وبوجود بعض المسؤولين الكبار ، وبينما هم يتجاذبون أطراف الحديث ويضحكون ، روى قائد المخابرات إحدى هذه النكت . ضحك الرئيس ضحكة ...! عندما روى قائد المخابرات النكتة عرف المسؤولون أن عليهم أن يضحكوا بدورهم ، فضحكوا . ياله من رئيس لطيف ! إنه يضحك حتى من السخرية التي تتناوله . سأله الرئيس :

ـــ وهل ثمة نكت ساخرة أخرى كهذه ؟

قال قائد المخابرات :

ـــ نعم ياسيدي !..

وروي النكت واحدة تلو أخرى .

دمعت عينا الرئيس من شدة الضحك .. كاد يتمزق من الضحك :

ـــ إن مارويته نكتٌ مضحكة للغاية .. كم إنها تُبرز جانب الهبل عند نائبي الأول .. حذار من أن تصل مسمعه فيزعل !.. مهبول أو غير مهبول ، لايهم ، لكنه ، كيفما كان ، نائبي الأول ، ولاأريد أن يسمعها .

هكذا شاء الرئيس ، لكنه مع ذلك طلب سماع المزيد من هذه النكت ، ليضحك على هبل نائبه الأول .. ضحك حتى انقطع نفسه ..

فكر قائد المخابرات الذي لم يكن يعرف من الذي ألَّف هذه النكت المفسدة لنظام الرئاسة كله ، والتي تفسد بالتالي موقعه .. فكر في أن يرويها للنائب الأول للرئيس ، الذي سيفهم ـــ لابد ـــ أن هذه النكت ترمي إلى الهزء منه ، فيمنع هذا النوع من النكت . تحين فرصة مناسبة وروى إحدى هذه النكت في بيت النائب الأول للرئيس . ضحك نائب الرئيس على نحو جعل كل الذين كانوا عنده يضحكون . سأله :

ـــ ألا توجد نكت أخرى من هذا القبيل ؟

أجاب قائد المخابرات :

ـــ إنها كثيرة جداً ياسيدي !

وروى بقية النكت .

من شدة الضحك أخذت عينا النائب الأول للرئيس تذرفان الدمع .

قال النائب الأول للرئيس :

ـــ في الحقيقة إنها نكت مضحكة جداً ، ومن جهة ، إنها تُظهر هبل رئيس وزرائنا عا

نحو جيد . إذا وصلت سمعه فسيكون ذلك معيباً .. أهبل أو غير أهبل ، ومهما يكن الأمر ، إنه رئيس وزرائنا ، وأنا لاأريد أن يعرف أننا نسخر منه .

أصرَّ قائد المخابرات على أداء واجبه ، وإذ وجد فرصة مناسبة في ليلة كان فيها بعضهم معزوماً إلى بيت رئيس الوزراء ، حكى النكت . ضحك رئيس الوزراء وهو ممسك بحالبيه ، ثم قال :

ـــ نكت ساخرة وجميلة جداً جداً .. وكم إنها تتناول وزير خارجيتنا على نحو موفق ! لكن من المعيب أن تصل هذه النكت الى مسمعه . أهبل ؟ فليكن ؟ أليس واحداً منا ، ونعمل في مكان واحد ؟ لاأريد أن تصله .

انتهز قائد المخابرات فرصة حكى فيها النكت لوزير الخارجية . قال وزير الخارجية وهو يقهقه إن هذه النكت تحكي عن هبل وزير المالية .

وكاد آخر وزير رويت له هذه النكت يتفزر من الضحك وقال :

ـــ ياإلهي كم يسخرون من مديرنا العام .. لكنه معيب أن تصل سمعه . لاأريد أن يسمعها . ضحك المدير العام عندما سمع النكت من قائد المخابرات حتى كاد يغمى عليه .. ثم قال :

ـــ إنها نكت لطيفة ، وهي تحكي عن هبل مدير الدائرة الفلانية .. ومهما يكن الأمر ، لاأريد أن يسمعها ... عيب !

حكى قائد المخابرات النكت لمدير الدائرة الفلانية . قال مدير الدائرة الفلانية ، وهو يقهقه ، إن هذه النكت تتناول هبل معاونه وإنه لايريد أن تصل إليه :

ـــ ليكن مايكون ، إنه معاوني ولاأريد أن تصل سمعه .

قال معاون مدير الدائرة الفلانية عندما سمع النكت من قائد المخابرات إن المقصود بها إنما هو رئيس الشعبة .. وأضاف :

ـــ هو أهبل ، نعم ، لكنه مع ذلك رئيس شعبتنا ولاأريد أن يسمعها .

رئيس الشعبة ، عندما سمع هذه النكت من قائد المخابرات قال إنها مؤلفة بهدف السخرية من رئيس القسم . قال رئيس القسم لقائد المخابرات بعد أن سمع النكت وهو يقهقه إن هذه النكت قد ألفت بهدف السخرية من موظف دائرتهم الذي يقع في أسفل درجات سلم الرواتب .

كان هدف قائد المخابرات أن يعتقد أحد أولئك المسؤولين الذين روى لهم النكت أنها مؤلفة عليه فيغضب .. لأنه لوغضب واحد منهم لتخلص الجميع ، وعلى رأسهم الرئيس ورئيس

الوزراء وباقي المسؤولين منها .

روى قائد المخابرات النكت الساخرة للموظف ذي الدخل المحدود الواقع في **أسفل** درجات سلم الرواتب .

لم يضحك الموظف ، كان هو أول انسان يسمع هذه النكت ولا يضحك . دع الضحك جانباً ، فلقد امتقع لونه واصفَّر عندما كان قائد المخابرات يروي النكت الواحدة تلو الأخرى . تلفت الموظف يميناً ويساراً ، لاأحد .. نظر وراءه .. لاأحد ! عندئذ قال لقائد المخابرات بصوت متحشرج :

ـــ صدقني إنني أسمع هذه النكت لأول مرة منكم !...

سحب قائد المخابرات نفساً عميقاً . إنه لم يعرف مَنْ هو المقصود بتلك النكت ، لكنه ، في آخر المطاف ، عثر على المجرم الذي ألَّف النكت ، وقبض عليه .

القصة التي لم يكتبها لافونتين

نظمت الحيوانات مسابقة لانتقاء أذكى حيوان بينها . ولأن كل حيوان كان يظن نفسه الأذكى ، فقد كان كل منها يعتقد أنه سيفوز بالمسابقة . بيد أن الجميع كانوا يعرفون بوجود مرشحين قويين للمركز الأول في هذه المسابقة : الثعلب والسنسار .. لايوجد من يفوق هذين الحيوانين في الذكاء والشيطنة ، وكان سيفوز بالجائزة هذا أو ذاك .

كانت المنافسة على المركز الأول تستعر بين المرشحين القويين على نحو مخيف كلما اقترب اليوم الذي ستُجرى فيه مسابقة انتخاب الحيوان الذكي . لقد تحول ذانك الحيونان الذكيان إلى عدوين ، وأخذ كل منهما يعمل ، بكل ماأوتي من حيلة ، على إفشال الآخر .

كان السنسار يقول :

ــ ماعندي مانع أن يخسر الثعلب ، وحتى لو لم أربح ، فأنا راض بذلك ..

والثعلب من جهته يقول :

ــ ليخسر السنسار ، ومن بعدها فليفزّ من يفوز ..

وإذ بلغ الأمر هذا الحد من العداء أخذ كل من السنسار والثعلب يبحثان عن مرشح آخر للمركز الأول في مسابقة الحيوان الذكي .. بحثا عن حيوان لايمكنه الوقوف أمامهما في سباق الذكاء ، بحيث لايشكل أيَّ خطر عليهما ، بمعنى آخر ، يجب أن يكون من أكثر الحيوانات غباءً .. وقد وجدا ، بعد البحث المضني ، أن هذا الحيوان هو (التيس) .

جاءالسنسار صباح أحد الأيام إلى جانب التيس الذي كان يرعى في سهل أخضر ،

وبادءه بالكلام قائلاً :

ــ مرحباً ياأخي التيس !

وراح يمتدح ذكاء التيس .

قال التيس باسماً بكثير من التواضع :

ــ إنك تسخر مني ياأخي السنسار ؟

قال السنسار :

ــ ولماذا أسخر منك ؟ وهل بلغ بي المقام أن أسخر من أذكى الحيوانات قاطبة ؟

واستمر السنسار يمتدحه ويلاطفه وينعته بأنه أذكى الحيوانات !..ولم يكتف بهذا ، بل عمل أيضاً على إقناع الحيوانات الأخرى بأن التيس أذكى الحيوانات .

بعد السنسار جاء الثعلب إلى جوار التيس الذي كان يرعى في السهل . قال للتيس الذي راح ينظر إليه مستغرباً :

ــ آه ياأخي التيس ! إن شرر الذكاء يقدح من عينيك .

قال التيس :

ــ لست تيساً بالقدر الذي تظنه ... أنا أعرف نفسي ..

قال الثعلب

ــصدقني أخي التيس ، عندما أنظر في عينيك اللامعتين اللتين تقدحان شرر الذكاء ، أرجع إلى نفسي قانعاً بأنك المرشح الوحيد الذي لامنافس له في مسابقة أذكى الحيوانات .

ولكي يُعرَّف بذكاء التيس بدأ الثعلب يشن حملة دعائية أكبر من حملة عداوة السنسار . كانت الحيوانات تعرف ، حق المعرفة ، أن التيس ليس ذكياً ، وأنه لن يربح المسابقة ، لكنها ، وبالرغم من أنها لم تصدق الكذب الذي أطلقه الثعلب والسنسار حول ذكاء التيس ، كانت تتظاهر بأنها مصدقة ، وراح بعضها يحكي للآخر ــ متمسخراً ــ عن ذكاء التيس :

ــ دخيلك ياأختي الزرافة .. هذا التيس ياه .. أنا لم أر أذكى منه حيواناً .

ــ لاأدري ياأختي النعامة .. حتى إن التيس أذكى مني . ما قولك ياأخ لقلق ؟

ــ بالنسبة إلي سأعطي صوتي في مسابقة أذكى حيوان للتيس ، دون أن يرف لي جفن .

أصبحت حيوانات الجبال ، المناطق الوعرة ، الغابات ، الصخور ، الصحارى ، الوديان .. تحكي عن ذكاء التيس .

ـــ أذكى الحيوانات : التيـ ......ـس !
ـــ لايوجد أذكى من التيـ ......ـس !
ـــ أذكى واحد فينا : التيـ ......ـس !

بعد هذه الدعاية الاعلامية المكثفة التي قامت بها الحيوانات بدأ التيس يصدق أنه أذكى الحيوانات . صار يقول لنفسه :

ـــ الحيوانات كلها : ابن آوى ، السنسار ، الثعلب .. تقول إنني أذكى الحيوانات .. لايمكن أن يُخدعوا جميعاً ياه .. ومادام الأمر كذلك فان مايقولونه صحيح .

حل يوم المسابقة . أجمعت الحيوانات كلها على أن التيس هو أذكى حيوان . وبهذا ارتفعت مكانة ، وظيفة ، مرتبة ، عمل التيس بين الحيوانات . صار التيس يمشي متغطرساً ، ويخرج صوته منتفخاً ، ويذرُّ بعره من تحت ذيله ذرّاً .

راح يوم أتى يوم ..

ستُجرى مسابقة لاختيار أفضل حيوان يضرب بالجوز[1] . ولا شك أبداً في أن الأفضل سيكون حيوان حراثة ، الحصان أو البغل ، ولو أن الحمار يدس نفسه أحياناً ، قائلاً .

ـــ أنا الآخر ، رفستي بالجوز قوية !

لكن اسمه لايذكر بجوار اسم الحصان أو البغل .

البغل خاف من أن يفوز الحصان ، والحصان خاف من أن يفوز البغل في هذه المسابقة . بين هذين الحيوانين منافسة تاريخية مزمنة في الرفس بالجوز . موعد المسابقة يقترب فيحمى وطيس المنافسة بين هذين العدوين اللدودين . الحصان يقول :

ـــ هيه ! وهل رفسة البغل بالجوز رفسة ؟ إن رفسة التيس بالجوز أقوى من رفسته . ومأأهمية رفسة حيوان أبوه الحمار ؟

والبغل يقول :

ـــ البعوضة لاتنمعس برفسة الحصان بالجوز . رفسة التيس بالجوز أقوى من رفسته .

ذهب الحصان إلى التيس الذي كان يشرب الماء من الوادي .

قال له :

ـــ أيها السيد تيس ! لستَ أذكى حيوان في الدنيا وحسب ، بل إن رفستك بالجوز أقوى رفسة بالجوز بين حيوانات العالم .

قال التيس وهو يدوس بقائمته الخلفية اليسرى على زبلة الحصان الطازجة لتصدر صوت

فش ش ش :

ــ رحماك يأخي الحصان ! وهل يؤتى على ذكر رفستي بالجوز وأنت موجود ؟..

ــ لا ..ه .. ياسيد تيس .. أنت ، برفسة بالجوز واحدة ، توقع البغل . فلا تتواضع دون سبب .

ذهب الحصان . جاء البغل إلى التيس وقال :

ــ أقدم احترامي للتيس صاحب أقوى رفسة بالجوز في العالم .

في البدء لم يكن يريد تصديق هذا الكلام ، لكنه ، إذ قال البغل :

ــ رفستي بالجوز ورفسة الحصان بالجوز لاتساويان شيئاً أمام رفستك .

قال لنفسه :

ــ أنا لاأعرف كما يعرفان ياه ..

وباشر يصدق أن رفسته بالجوز هي الأقوى .

كان كل حيوان يعتقد أن رفسته بالجوز هي الأقوى ، حتى الديك فقد كان يظن أنه يستطيع الرفس بالجوز بواسطة مهمازيه . ولهذا السبب أرادت الحيوانات كلها أن يُنتخب حيوان ضعيف للرفس بالجوز .

جاء يوم المسابقة . توحدت آراء الحيوانات جميعاً على أن التيس هو صاحب أقوى رفسة بالجوز .. وهكذا أصبح التيس أشد الحيوانات ذكاء ، صاحب أقوى رفسة بالجوز ، فعلت من ثم مكانتهُ ، وظيفته ، عمله ، مستواه .. أكثر فأكثر في مجتمع الحيوان .

راح يوم جاء يوم ...

ستجرى مسابقة للحيوان الأسرع بالركض . كل حيوان ، حتى السلحفاة ، يعتقد أنه أسرع الحيوانات في الركض ، لكن الكل يعرف أن أسرع الحيوانات في الركض هو : إما الأرنب أو الكلب السلوقي . في كل زمان وفي كل مكان تنشأ الغيرة وينشأ العداء بين الأقوى والأنجح ، والواحد لايطيق الآخر .. لذلك ، وبالرغم من معرفتهما بأنهما الأسرع في الركض ، حاول كل من الأرنب والكلب السلوقي منع الآخر من الفوز .

اقترب يوم المسابقة فتحول أخطر المتنافسين ، الأرنب والكلب السلوقي إلى عدوين . قال الكلب السلوقي :

ــ إذا لم أكن سأطلع الأول في هذه المسابقة ، فليطلع التيس ! ولأن الأرنب فكر بالطريقة

ذاتها فقد ذهب الى التيس وقال :

ــ أنت لست أذكانا ، وأفضلنا في الرفس بالجوز وحسب ، بل وأسرعنا في الركض ياسيد تيس !

قال التيس للأرنب :

ــ الكلب السلوقي يفكر كما تفكر أنت أيضاً .

جاء يوم المسابقة . بدأت الحيوانات تركض . مستطيعو الركض بسرعة صاروا يعرقلون ويُسقطون أنفسهم .. الكل أراد أن يطلع التيس أبطأهم طراً ، الأول في الركض ، وأخذوا يفسحون له المجال .. أخيراً طلع التيس الأول .

ارتفعت مكانةُ ، مستوى ، عمل ، شأن التيس في مجتمع الحيوانات أكثر وأكثر ، ذلك أنه فاز بمسابقة أسرع حيوان في الركض ، وأقوى رفسة بالجوز ، وأذكى حيوان . رفع التيس منخريه وصار لايمكن الاقتراب منه .

راح يوم جاء يوم .. سيُنتخب أجملُ حيوان . الحيوانات كلها تعرف أن أجمل حيوانين : الغزال وعنزة الجبل ، وكلها تغار من هذين الحيوانين . ولئلا يُختار أحدهما كأجمل حيوان ، فليطلع التيس أجمل حيوان .

الغزال وعنزة الجبل بدآ يشنان دعاية مضادة كل على الآخر . كل منهما يُظهر الآخر قبيحاً للغاية . صارت العنزة تقول عن الغزال ، والغزال عن العنزة :

ــ التيس أجمل منه (منها) .

وبالرغم من معرفة الحيوانات أن هذا الكلام كاذب فقد بدت وكأنها مصدقة . جاء يوم الانتخاب فأعطت الحيوانات أصواتها للتيس . انتخب التيس كأجمل حيوان ، وكان أجمل الحيوانات ، الغزال وعنزة الجبل ، ممتنين من هذه النتيجة .

راح يوم أتى يوم ..

سينتخب الحيوان الجارح الأول . كان ثمة مرشحان : الذئب ؛ والآخر من الطيور .. وعندما يقال طير فمؤكد أنه ليس السنونو .. بل الصقر . لايوجد جارح أشد من الذئب والصقر . وبالرغم من معرفة الحيوانات هذه الحقيقة فقد كان كل منها يظن نفسه الجارح الأول .

ذهب الصقر إلى التيس . وهو يستطيع أن ينقض عليه ويأكله ــ وقال له .

ــ ياسيد تيس ! الذئب المجنون يظن نفسه أجرح منك .

قال التيس :

ــ أنا لست جارحاً أبداً ، فأنا آكل العشب .

ــ لا ! !!! ..لا تبدأوا بالتواضع هكذا دون مبرر .. أنتم ، قياساً بالذئب ، جارحون جداً . بعد قليل قال الذئب الذي جاء إلى التيس :

ــ أحيي أجرح حيوان في العالم !

قال التيس :

ــ إنكم تغالطون ياأخي الذئب . فأنا أذكى حيوان ، نعم ، وصاحب أقوى رفسة بالجوز ، بين الحيوانات ، نعم ، وأسرع حيوان في الركض ، نعم ، وأجمل حيوان أنا ، لكنني لست أجرح حيوان أنت أجرح مني بكثير .

ــ لالا .. إذا شئت تكون أجرح مني .

حل يوم الانتخاب .. انتخبت الحيوانات التيس بالإجماع على أنه أجرح حيوان ، وبهذا ارتفعت مكانته ، شأنه ، عمله ، مستواه . أكثر .

راح يوم جاء يوم .. سيُنتخب الحيوان المفكر الأول ، ومؤكد أن أقوى مرشحين هما الوزة وديك الحبش ، وكما في كل مرة تخاصم هذان الحيوانان مع بعضهما البعض فانتُخب التيس الحيوان المفكر الأول .

راح يوم جاء يوم .. سيُجرى انتخاب للحيوان الحارس الأول ، والمركز سيكون بالتأكيد لكلب الراعي أو للكلب الذئبي .. لكن ، حتى كلب الراعي والكلب الذئبي أعطيا صوتيهما للتيس ، وقول التيس (أنا لاأستطيع حماية نفسي) لم يمنع من انتخابه ..لكن التيس بعد أن جرى انتخابه صدق أنه أقوى حيوان حراسة وبدأ يهمر محاولاً النباح كالكلب .

راح يوم جاء يوم .. سينتخب أضخم حيوان ، وكان يجب أن يفوز الفيل أو الجمل ،

ولأن النملة ، حتى النملة ، تعتقد أنها أضخم الحيوانات ، فقد كانت كل الحيوانات تضيق ذرعاً بضخامة الفيل والجمل ، وتريد أن يفوز حيوان آخر . دب الخصام بين الفيل والجمل قبل موعد الانتخابات فاختير التيس كأضخم حيوان .

وصار الاقتراب من التيس صعباً من فرط تطنيبه .

راح يوم جاء يوم . سينتخب أفضل حيوان حلوب . ومعروف أن المركز الأول سيكون للبقرة أو لأنثى البوفالو . لكن حتى الحيوانات غير الثديية التي لم تر في حياتها قطرة حليب ، كالدجاج ، كانت تظن نفسها أكثر الحيوانات حليباً ، لذلك غارت جميعها من البقرة ومن أنثى البوفالو . والبقرة وأنثى البوفالو من جهتهما وقعتا في خصام منشؤه شدة المنافسة . ولكي يفشل المتنافسون أحدهم الآخر قالوا : إن التيس أكثر الحيوانات حليباً .

عندما جاءت أنثى البوفالو إلى التيس وقالت له إنه أفضل حيوان حلوب ، قال التيس :

ــ أنتم على الأرجح ، تخلطون بيني وبين أختنا البقرة . أنا حتى الآن لم أحلب ، ومن جهة أنا مالي أثداء .

قالت انثى البوفالو :

ــ ماشاء الله كان ! أنتم حيوان حلوب إلى درجة أنكم لا تحتاجون إلى أثداء للحلب .

بعدها جاءت البقرة إلى التيس وقالت له إنه أفضل الحيوانات حليباً ، فقال التيس :

ــ ياهوه ، أنا مالي ثدي حتى أعطي حليباً .

وكان التيس أثناءها يتبول فصاحت البقرة :

ــ ها هو ! هاهو ! مأأجمل حليبك !..

قال التيس :

ــ أي حليب ياهوه ؟ إنني أتبول ..

فقالت البقرة :

ــ هذا يعني أنك تشخُّ حليباً دائماً ، وأنت لاعلم لك ..

وراحت الحيوانات كلها ، وعلى رأسها أكثرها حليباً ، البقرة وأنثى البوفالو ، تنشر أن التيس هو الحيوان الحلوب الأول حتى اهتزت حجارة الجبال من تأثير الدعاية التي نشرت .

ــ حليب التيس أغنى أنواع الحليب بالسمن !

ــ حليب التيس أنظف حليب !

ــ التيس حلوب إلى درجة أنه يشخُّ حليباً !

حتى صدق التيس نفسه ، مع هذه الدعاية المكثفة ، أن بوله عبارة عن حليب ، وانه يتبول حليباً أصفر .

عندما حل موعد الانتخاب أعطت الحيوانات جميعها ، بما فيها البقرة وانثى البوفالو ، أصواتها للتيس .. وهكذا انتخب كأفضل حيوان حلوب .

راح يوم جاء يوم ..

سينتخب ملك جديد للحيوانات . والأسد ملك الحيوانات منذ الأزل ، ولم يكن ثمة شك في كون الأسد سينتخب ملكاً من جديد . غير أن النمر رشح نفسه للعرش . صار النمر يقول :

ـــ إما أنا أو هو .

كان يقول ذلك الكلام ، لكنه خاف من أن يُنتخب الأسد ملكاً . وإذَّاك تراجع النمر الذي كان يقول (إما أنا أو هو) ليقول :

ـــ لا أنا ولا هو !

لدى ترشيح النمر نفسه للعرش بدأ الأسد يقطع أمله .. فماذا لو انتخبت الحيوانات النمر ملكاً ؟ راح الأسد ، وحتى لاينتخب النمر ، يقول :

ـــ لاأنا ولاهو !

كان كل حيوان ، بالرغم من معرفته أنه لايستحق هذا المكان ، ولايليق له هذا المكان ، يرغب في أن ينتخب ملكاً . ولأن الناجح والقوي لايُطاق ولايهضم فقد غارت الحيوانات من النمر والأسد فرشحت التيس للعرش . لأنها انتخبت التيس كأذكى حيوان ، دون أن تكون مصدِّقة ذلك أن صدقته فيما بعد ، وانتخب التيس كحيوان حلوب أول وهي تعرف أنها تغالط قناعاتها ، وأجمل حيوان .. وقد صدقت كذبها بعد أن حصل الانتخاب على صفته الرسمية .

إه !.. عندما يكون التيس أذكى حيوان ، وصاحب أقوى رفسة بالجوز ، والأسرع ركضاً ، والأجمل ، والأجرح ، والمفكر الأول ، والأفضل في الحراسة ، والأضخم ، والأغزر حليباً .. فلماذا لايكون ملك الحيوانات ؟ إن هذه المزايا جميعها لايتمتع بها لا الأسد ولا النمر ..

هذا كله بالاضافة إلى أن الخصمين ، النمر ، والأسد الذي كان على مدى التاريخ ملكاً ، وحتى لاينتخب أحدهُما ملكاً دون الآخر ، صرحا بأن التيس لائق لهذا المنصب أكثر منهما .

كان النمر ، مرشح العرش الجديد ، يقول :

ـــ العرش من حق التيس !

ثم لايضيف شيئاً آخر .

بقية الحيوانات ، لأن أياً منها لايستطيع أن يصبح ملكاً ، أرادت أن يكون التيس ، الأقلُّ مقدرة على الأذى ، ملكاً ، لأنه لا يعتبر منافساً أبداً .

ظنَّ الملك التيس نفسه ملكاً بحق وحقيق وصار يتصرف كالملوك ، وراحت الحيوانات تعتبره ملكاً حقيقياً .

كتب الكركدن مؤرخ الحيوانات هذه الواقعة في كتاب تاريخ عصره على النحو التالي :

«يترافس الحصان والبغل فيكسب الحمار الواقعة .. ويأتي زمن يتصارع فيه الأقوياء ، ووقتها يصبح التيس ملكاً !» .

الفئران تأكل بعضها

في أحد الأزمان وأحد البلدان .. لا ؛ الحكاية لاتصح هكذا ، تصح إذا حددنا الزمان والمكان .

الزمان : بعد الميلاد .

المكان : مكان ما في هذا العالم .

ها قد صار الزمان والمكان معروفين .

لنأت إلى الحادثة . في المكان الذي ذكرناه ، والزمان الذي حددناه ، كان ثمة مخزن كبير . المخزن كان مملوءاً بما يؤكل ، يحرق ، يغسل .. يلبس . كل شيء مفصل مرتب . الخضار اليابسة كالحمص والفاصولياء والفول .. في طرف ، الحبوب كالذرة والأرز والشعير والجلبان .. في طرف ، الألبسة والأحذية في طرف آخر .

كان يدير المخزن المحدد المكان ، في الزمان المذكور ، مدير ناجح . جاء يوم لم يعد يعرف المدير الناجح ماذا يعمل ، فالفئران احتلت المخزن ، المأكولات صارت تتناقص ، فالفئران قرضت الجبن والخبز المقمر .

المدير الناجح لايجلس ويداه في خصره ، أبداً ، لايقف دون عمل شيء . حارب الفئران بكل ما أوتي من بأس ، لكنه ، وبالرغم من كل ما بذله ، لم يكسب الحرب . الصابون وقطع الجبن تتناقص يوماً إثر يوم ، الملابس أصبحت مثقبة ومهبّرة .. أعشاش الفئران بنيت داخل أكياس الطحين .

لم يبق اطمئنان على سلامة المخزن من الفئران التي أخذت تسمن وتعجعج وتتكاثر كلما أكلت من الحبوب والأطعمة . غُص المخزن بالفئران ، احتل جيش منها المخزن الكبير ، وبدا وكأن الوقوف في جهه مستحيل . ولم تكتف الفئران بالتهام المأكولات وقرض الملبوسات وقضم الجبن والسجق ، بل إنها راحت تسن أسنانها وأظافرها بالجلود والأحذية والخشب .

أصبحت الفئران ، من وفرة الغذاء ، بحجم القطط ، ومع الزمن بحجم الكلاب . وكانت لاتهجع أبداً ، تتراكض وتتلاعب في المخزن وتنطنط وتتقافز ، وفوق ذلك سدت أكثر الأماكن تهوية وجمالاً وإنارة فيه .

المدير الناجح استمر في حربه مع الفئران دون هوادة . وضع أكثر أنواع السموم مضاء في كل جهة وفي كل صوب .. لم يستفد شيئاً ؛ لابل إن الفئران اعتادت على السم المقدم لها ، لأنها كانت تنتشي بتناولها كما ينتشي الانسان المعتاد على سموم النشوة ، وبدأت ، مع مرور الزمن تطلب السم أكثر .. وإذا لم يقدم لها السم ، مع الزيادة عن اليوم السابق ، كانت تدب الأرض بأرجلها ، فتكاد تهد المخزن .

جمع مدير المخزن أفضل أنواع قطط الصيد وفلتها في المخزن ليلاً ، وفي الصباح وجد وبر القطط المسكينة وبقايا عظامها .. لم تستطيع القطط مجابهة الفئران ، ولم يقتلها أقطع السموم .

بدأ المدير الناجح بصلي أفخاخ كبيرة ، وصار يحدث أن يقع بعض الفئران في الفخ ، لكن ، إذا وقعت خمس فأرات في الفخ ليلاً ، فإنها كانت تلد ما لايقل عن عشرين أو ثلاثين فأراً في النهار .

وفكر المدير .. اهتدى إلى طريقة فريدة : صنع ثلاثة أقفاص حديدية ، رمى فيها كل ما كان يقع من الفئران في الفخ وهي حية . امتلأ كل قفص من الأقفاص بالفئران . لم يقدم للفئران التي في الأقفاص طعاماً أو أي شيء . اختارت الفئران التي باتت على الطوى ثلاثة أيام ، خمسة أيام ؛ اختارت الفئران الأضعف بينها ، قطعتها ، أكلتها ، أشبعت بطونها .. وبعد وقت جاعت .. بدأت تتصارع ، وبنتيجة صراعها الدامي هذا سطت على واحدة من بينها ، خنقتها ، قطعتها ، والتهمتها .. وهكذا أخذ عدد الفئران يتناقص مع مرور الزمن : تبقى الفأرة الأكبر ، صاحبة العزم الأقوى .. وتتقطع الفأرات الضعيفات ويؤكلن .

تحولت الأقفاص المملوءة بالفئران إلى ميادين حرب حقيقية .. بقي في كل قفص من الأقفاص ثلاث إلى خمس فئران ، والفأرات الباقيات صرن يترامين على بعضهن ويتعاضضن قبل أن يشعرن بالجوع ؛ ذلك أن الواحدة منهن ، إذا لم تفتك بالأخرى فإن الأخرى ستقطعها

تقطيعا .

لذلك صارت كل فأرة من الفئران ، من أجل حماية روحها ، تستغل فترة نوم أو سهو الفأرة الأخرى لتنقض عليها وتخنقها وتقطعها . وأكثر من هذا : صارت تتحد فأرتان أو ثلاث في كل قفص ، ويهاجمن أخرى ، وتلك المتحدة ، في المطاف الأخير ، تتحاين الفرص ليأكل بعضها البعض الآخر .

أخيراً بقي في كل قفص فأرة واحدة : الفأرة الأقوى ، الأذكى ، الأكبر ، الأكثر صموداً .

عندما بقي في كل قفص فأرة واحدة فتح الرجل أبواب الأقفاص وفلت الفئران داخل المخزن واحدة ، واحدة .

بدأت تلك الفئران الثلاث ، الضخمةُ ، المغذّاة ، المتوحشة ، المعتادة على أكل بنات جنسها ، تنقض على فئران المخزن ، مهما بلغ عددها ، تخنقها وتقطعها وتلتهمها .. ولكونها توحشت فقد صارت تأكل ما يأكل من الفئران وتقتل الباقيات من أجل حماية نفسها ، لئلا تخنقها وتلتهمها الفأرات الأخريات .

وهكذا ، ولو لم يكن أبداً ، فلمدة من الزمن ، تخلص المخزن الآنف ذكر زمانه ومكانه من الفئران .

الحكاية انتهت هنا .

سؤال أوجهه لكم الآن : كيف خطر ببال المدير الناجح هذا المكر الذي لايخطر ببال الشيطان ؟ كيف اهتدى إلى أسلوب الخلاص من الفئران وذلك وبإطعامها بعضها البعض ؟

الجواب : لأن مدير المخزن الناجح كان الفأر الأقوى الذي بقي سالماً بنتيجة تآكل أبناء جنسه . لقد أصبح مديراً لكل ذلك المخزن عن طريق أكل وقتل أصدقائه .. طَبَّقَ على الفئران أسلوب حياته الخاص .. الناجح .

النتيجة : الفئران تأكل بعضها .

الفهـــرس